

المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي

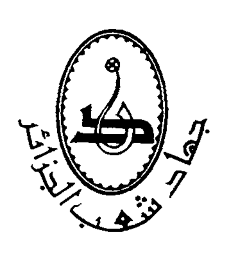
بسام العسلي








بسم الله الرحمن الرحيم



المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي

(١٨٣٠ - ١٨٣٨م)

بسّام العسلي

دار النفائس

الطبعة الأولى : ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

الطبعة الثالثة : ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

(c) دار النفائس

[illegible]، ص.ب: ٦٣٤٧ - ١١ - هاتف: ٨١٠١٩٤ - برقياً: دانفايسكو

الإهداء

إلى أرواح الشهداء
من الرواد الأوائل في مجابهة
الهجمة الصليبية (الاستعمارية)
والذين أضاؤوا بدمائهم درب الجهاد
فسارت جموع المجاهدين على خطاهم حتى النصر.

بسام

المقدمة

ويبدأ القرن الخامس عشر للهجرة،

ومع هذه البداية يكون قد مضى على احتلال الجزائر قرن ونصف من عمر الزمن. ففي سنة (١٨٣٠ م) اقتحمت جيوش الغزو الافرنسي أرض الجزائر الإسلامية في عملية قرصنة وحشية عجزت عن مثلها جيوش البرابرة. وكان ذلك إيذاناً ببدء عصر جديد عرف باسم (عصر الاستعمار).

ومع بداية سنة (١٩٨٠ م) يعود العالم العربي- الاسلامي ليعيش تجارب غير بعيدة في ملامحها العامة عن تلك التي عرفها منذ مائة وخمسين سنة.

الحرب واحدة وظواهرها متنوعة وأشكالها متباينة، غير ان هذا التنوع وذاك التباين لا يستطيعان إخفاء هدف هذه الحرب الشرسة وطبيعتها.

لقد كانت عملية غزو الجزائر- تحت راية الصليبية- هي بداية صراع مرير خاضه شعب الجزائر المجاهد تحت راية الاسلام، طوال فترة (عرفت بليل الاستعمار). وكان هذا الليل الطويل حافلاً

بالتجارب الثوروية وأعمال الصراع المسلح. ولم تعد هذه التجارب الثوروية ملكاً للجزائر وأهلها بقدر ما أصبحت ملكاً لشعوب العالم كله، وبصورة خاصة تلك التي عانت من (تجربة الاستعمار) ولا تزال تعاني من (رواسبه).

وتجربة الجزائر هي تجربة (فردة) فقد بدأ الاستعمار بالجزائر وانتهى فوق أرض الجزائر. وكان الجهاد طوال هذه الفترة مميزاً بخصائصه، مميزاً بأساليبه، مما حمل الكاتب العسكري الافرنسي بلوفر- على الاعتراف بهذه الخصوصية، فصنفها في إطار «الحروب الثوروية الاسلامية». وقد يكون من غير المهم الأخذ برأي الغربيين في المنجزات الثوروية للعالم العربي الإسلامي، ولكن من المهم أن يعرف العرب- المسلمون أهمية تجاربهم الثوروية، لأن هذه المعرفه تجعلهم أكثر قدرة على الالتزام بأسس «أصالتهم الذاتية».

تجربة (الجزائر المجاهدة) هي تجربة فردة، وقد يكون العرب المسلمون أحرى من غيرهم بمعرفة أبعاد هذه التجربة والافادة منها. وقد يكون من الصعب الوصول الى هذه الأبعاد إن هي لم تستند إلى بداياتها الاولى. ومن هنا تظهر أهمية العودة إلى تلك البدايات في مقاومة الهجمة الاستعمارية. لقد تميزت المقاومة الجزائرية بمجموعة من الظواهر التي ارتسمت ملامحها الأولى مع بدايات الغزو، ثم تطورت هذه الظواهر من خلال التفاعل المستمر بين قوى القمع الاستعماري وقوى الجهاد الإسلامي. وحاولت الصليبية تغطية كل سوءات الاستعمار، غير أنها فشلت في ذلك. وحاولت قوى القمع الاستعماري تدمير قواعد الصمود الإسلامية بتدمير المسلمين عقيدة وفكراً وحتى عبادة بتدمير المساجد

والاستيلاء عليها. غير أن ذلك كله ما زاد الجهاد إلا اتقادا، وما زاد من ألق الاسلام إلا توهجاً. فانطلقت الثورات المتتالية من المساجد ـ من قواعد الصمود ـ.

وحاولت فرنسا الاستعمار تدمير العرب، واللغة العربية، لأنها لغة القرآن، لغة الصمود. وهنا كان فشلها الكبير أيضاً، فكانت الصيحة المفجرة لكل ثورة ولكل معركة هي صيحة الجهاد عند العرب ـ المسلمين «الله أكبر».

وتنتصر الجزائر. ويعود الصراع من البداية، والى البداية.

غير ان أساليب الصراع تختلف، وطرائقه تتباين، لكن طبيعته ثابتة لا تتغير.

ومن هنا أيضاً تأخذ التجربة الجزائرية كل أهميتها، وتصبح ملكاً للعالم العربي ـ الاسلامي كله. وهذا ما يدفع الى (ضرورة التعرف عليها) وتذكرها دائماً، والتعلم منها.

(وقل رب زدني علماً)

بسام العسلي

وجيز الأحداث على الساحة الاوروبية

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١١٩٨	١٧٨٣	نهاية حرب الاستقلال الامريكية.
١٢٠٤	١٧٨٩	انفجار الثورة في باريس وتدمير سجن الباستيل.
١٢٠٨	١٧٩٣	اعدام لويس السادس عشر، اعلان اسبانيا وانكلترا الحرب على فرنسا. تقسيم بولونيا بين روسيا وبروسيا والنمسا.
١٢١١	١٧٩٦	تعيين بونابرت قائداً للجيش الافرنسي في ايطاليا.
١٢١٢	١٧٩٧	انتصار الافرنسيين على الهولانديين والنمساويين.
١٢١٤	١٧٩٩	استئناف الحرب بين فرنسا والنمسا، ومساعدة روسيا للنمسا، هزائم الافرنسيين المتتالية في ايطاليا.
١٢١٥	١٨٠٠	عبور نابليون جبال الالب وهزيمة النمساويين في مارنجو.
١٢١٩	١٨٠٤	تتويج نابليون امبراطوراً على فرنسا.
١٢٢٠	١٨٠٥	معركة الطرف الأغر.
١٢٣١	١٨١٥	هزيمة نابليون في واترلو وارسال نابليون الى (سنت هيلانة) وتنصيب لويس الثامن عشر على عرش فرنسا.
١٢٤٠	١٨٢٤	موت لويس الثامن عشر، وتنصيب خلفه (شارل العاشر).
١٢٤٦	١٨٣٠	ثورة فرنسا وخلع شارل العاشر وتنصيب لويس فيليب.
١٢٥٨	١٨٤٢	حرب الافيون وفتح خمس موانىء في الصين للتجارة الاجنبية
١٢٦٥	١٨٤٨	ثورة فرنسا الثالثة، وسقوط لويس فيليب، واقامة الجمهورية الافرنسية الثانية.
١٢٧٠	١٨٥٣	نابليون الثالث يحول الجمهورية الثانية إلى امبراطورية.
١٢٧١	١٨٥٤	معاهدة يوكوهاما، وفتح اليابان موانئها للتجارة الاجنبية.
١٢٧٣	١٨٥٦	معاهدة فيينا، وتقييد حرية (روسيا وتركيا).

وجيز الاحداث على الساحة الاسلامية

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١٢١٣	١٧٩٨	غزو نابليون لمصر، وتدمير اسطوله في معركة (أبي قير).
١٢٢٦	١٨١١	محمد علي باشا والي مصر يفتك بالمماليك ويبيدهم.
١٢٣٧-١٢٥٤	١٨٢١-١٨٢٩	ثورة اليونانيين ضد العثمانيين بتحريض من روسيا.
١٢٤٢	١٨٢٦	السلطان محمود الثاني يبيد الانكشارية.
١٢٤٣	١٨٢٧	معركة (نافاران) وتدمير الاسطول العثماني من قبل دول الحلف الثلاثي.
١٢٤٧	١٨٣١	الحملة المصرية على سورية بقيادة ابراهيم باشا (ابن محمدعلي باشا)
١٢٤٨	١٨٣٢	ابراهيم باشا يهزم العثمانيين قرب قونية.
١٢٤٩	١٨٣٣	صلح (كوتاهية) وتوقيع معاهدة الصلح الروسية العثمانية.
١٢٥٦	١٨٤٠	مؤتمر لندن لتسوية العلاقات العثمانيه المصرية.
١٢٥٨	١٨٤٢	ثورة الدروز، واعادة تنظيم لبنان.
١٢٦٦-١٢٦٩	١٨٤٩-١٨٥٢	النزاع بين الدول العظمى على الاماكن المقدسة في فلسطين
١٢٧٠	١٨٥٣	حرب القرم.
١٢٧١	١٨٥٤	العثمانيون يصمدون في قلعة سلسترة في وجه الروس. وهزيمة الروس على نهر الما.
١٢٧٧	١٨٦٠	بدء العمل في ترعة السويس، ومذابح النصارى في بلاد الشام.

وجيز الأحداث على ساحة الجزائر

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
١٢٣١	١٨١٦	اسطول انكليزي- هولاندي مشترك يهاجم الجزائر
١٢٤٠	١٨٢٤	حملة انكليزية ضد الجزائر.
١٢٤٣	١٨٢٧	الداي حسين يطرد القنصل الافرنسي بسبب استفزازه للداي. وفرنسا تعلن الحرب على الجزائر.
١٢٤٦	١٨٣٠	بداية حرب استعمار الجزائر.
١٢٤٩	١٨٣٣	احتلال وهران.
١٢٥٣	١٨٣٧	احتلال قسنطينة.

﴿يأيها الَّذينَ آمَنْوا مَالكُمْ إذا قيلَ لكُمْ آنفُروا في سَبيلِ اللّه اثاقَلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحَيوٰة الدنيا منَ الآخرة، فماَ متاعُ الحَياة الدنيا في الآخرة إلا قليلُ. إلا تنفروا يعذبكم عَذاباً أليمًا، وَيَستبدلْ قَوماً غيركم، ولا تَضروهُ شيئاً واللّهُ على كلِّ شيء قدير﴾

(سورة التوبة- الايتان ٣٨ و ٣٩)

الفصْلُ الأوّل

١- الموقف في دار الخلافة العثمانية

٢- محمد علي باشا في مصر

٣-معركة نافاران (١٨٢٧)

١ـ الموقف في دار الخلافة العثمانية

بدأ القرن التاسع عشر وهو يحمل معه بدايات التحول الحاسمة في غير مصلحة العالم الاسلامي، وأخذت الضربات المتلاحقة والمتسارعة تنزل بالامبراطورية العثمانية (الخلافة) بعد أن استنزف الصراع المستمر جهد طاقتها، وبعد أن أخذت الدولتان المجاورتان لها (بصورة خاصة) تتوسعان على حسابها، فقد سبق لدولة روسيا والنمسا أن انتزعتا قسماً كبيراً من أراضيها، لا سيما بعد أن ضمت روسيا اليها ولاية الكرج (جورجيا) سنة ١٧٨٤، وصار بامكانها تهديد دار الخلافة الاسلامية تهديداً مباشراً. ورافق ذلك ثورة صناعية في الغرب، أدت الى زيادة القدرات في دوله ـ وبصورة خاصة في فرنسا وانكلترا ـ وبدأت عملية البحث عن الأسواق الجديدة في العالم للحصول على المواد الأولية وتسويق المنتجات. ولما كان العالم الاسلامي يمسك بالتجارة الدولية ومفاتيح البحار، فقد أخذ البحث عن الوسائل الكفيلة بتحقيق ذلك عن طريق ما عرف (بالاستعمار). وتوجهت الاطماع بالدرجة الاولى لتمزيق وحدة العالم الاسلامي، خارجياً وداخلياً، وكان باستطاعة الدول العظمى استخدام عامل التحريض (القومي والوطني) لتدمير القلعة

الاسلامية من الداخل، وظهرت نتائج التحريض بسرعة على المسرح الاوروبي.

وأمام هذه الأخطار مجتمعة ظهرت حاجة الخلافة العثمانية لاعادة التنظيم الشامل في كل أجهزتها ومؤسساتها. ولم تعدم دار الخلافة وجود شخصيات اصلاحية متفتحة تنزع الى الاصلاح، وكانت المؤسسة العسكرية التي أحرزت فيما مضى أعظم الانتصارات، قد انتهت الى مرحلة مذهلة من التدهور والضعف والانحطاط. وكان لا بد من العمل على البدء باصلاح هذه المؤسسة قبل كل شيء لمجابهة الاخطار الخارجية. وعندما حاول السلطان (سليم الثالث) اصلاح جيشه، وتطويره، مستفيداً في ذلك من تجربة نابليون بونابرت، تصدت له طبقة (قيادة الانكشارية) فتآمرت مع حاميات قلاع البوسفور. وارغمت السلطان عن التنازل عن العرش في ٢٩ ايار- مايو- سنة ١٨٠٧ م. بعد أن تم اقتياد جميع انصار الاصلاح الى ميدان السباق (آت ميدان) حيث تمت ابادتهم عن آخرهم.

تولى مصطفى الرابع- ابن عم سليم الثالث - الخلافة، غير أنه لم يتمكن من الاستمرار في الخلافة أكثر من سنة واحدة، أقدم بعدها (مصطفى البيرقدار- حاكم سيلسترة)[1] على خلعه ولما كان (السلطان سليم السابق) قد قتل، فقد خلفه على الخلافة أخوه (محمود الثاني: ١٨٠٨- ١٨٣٩) الذي وضع نصب عينيه تطوير الخلافة وزيادة قوتها والقضاء على (الانكشارية). وأظهر في البداية

---

(١) سيلستره: SILISTRIE مدينة بلغارية تقع على الدانوب الادنى- الاسفل- وكانت مركزا لامارة الاقاليم المحيط بها، تميزت بقلاعها القوية.

ومعه مصطفى البيرقدار رضوخه للعناصر المقاومة للاصلاح. وعندما تعرض للهزائم المتتالية أمام القوات الروسية وخسر (نيقو بوليس وسيلسترة وروسجق) واضطر الى توقيع صلح (بوخارست في ٢٨ أيار ـ مايو ـ سنة ١٨١٢) وهو الصلح الذي اعترف فيه بنهر البروت حداً فاصلاً بين روسيا ودار الخلافة والذي أعلن فيه التزامه بعدم أي توسع جديد في المستقبل، وجد أن الفرصة قد باتت سانحة للمضي في اصلاحاته، غير انه كان ملزماً على التحرك بحذر بسبب مخاوفه من حرب يشنها (نابليون) على حدود البلاد الاسلامية، وبسبب الثورات المتفجرة في أوروبا. فمنذ سنة (١٨٠٤ م) كانت بلاد الصرب قد اعلنت الثورة بقيادة (قره جورج ـ قره يوركي) التي قدمت دعماً كبيراً لروسيا في حربها ضد العثمانيين مقابل دعم الروس لهم من أجل الاستقلال. ثم تابع (قره جورج) حربه ضد الخلافة العثمانية، ولكن الهزائم التي نزلت به أرغمته على الفرار الى النمسا. فقام مقامه (ميلوش اوبرنوويج). وفي سنة ١٨٢٠ اندلعت نار الثورة اليونانية التي اذكتها الحماسة الأوروبية ـ الصليبية ـ. وأدت هذه الثورة الى تعقيدات كبيرة بسبب منافسات الدول العظمى على استثمارها. وكان من أبرز نتائجها، حرمان بلاد الخلافة العثمانية من اقليم له أهميته العظمى (من الناحية الجيو ـ استراتيجية ومن الناحية الاقتصادية والبشرية). وتبع ذلك ظهور ثورات في الروم ايلي والاناضول غير أن الخلافة العثمانية نجحت في القضاء على هذه الثورات، واستعادت هيبتها في الاقاليم. وبرهن جند الانكشارية في هذه المعارك جميعها على ضعفهم وقصورهم. وأفاد (السلطان محمود) من فترة الانتظار والهدوء، فأسند معظم مناصب الدولة الى رجال أكفاء ومخلصين. وأقدم بعد ذلك على الخطوة الحاسمة في

ربيع سنة ١٨٢٦ م حيث أصدر أمره بانشاء جيش نظامي جديد اطلق عليه اسم (معلم اشكنجي) أي (الحرس المدرب) وذلك بعد أن اتخذ التدابير الوقائية اللازمة تحت حماية الجيوش الأناضولية التي كان حاكم (بيقوز۔ أو بكقوز) قد حشدها على الضفة الشرقية من البوسفور. واستخدم لتدريب هذا الجيش المدربين الذين ارسلهم محمد علي والي مصر لهذه الغاية. وأمكن للسلطان ان يكتسب الى جانبه ضباط الانكشارية، فأقروا خططه الاصلاحية، في حين ازدادت معارضة من دونهم من الجند لهذا الاصلاح شدة وحدة.
وحدد يوم ١٨ حزيران۔ يونيو ١٨٢٦ موعداً لعرض الجيش في (كآغد خانه) قرب استانبول. ولكي يحول الانكشارية دون هذا العرض، فقد اعلنوا العصيان قبل موعد العرض بثلاثة أيام، واكتفوا بادىء الأمر بالمطالبة بالغاء قوانين التدريب المستحدثة للجيش الجديد.
ولكن السلطان أمر۔ بموافقة العلماء۔ بأن تنشر الراية النبوية۔ وكأنه يبغي قتال فئة من الكفار. وأوعز الى الجيش، بعد أن حشد على وجه السرعة، بتطويق الانكشارية في (آت ميدان) القائمة تجاه ثكناتهم، ولفظ المفتي اللعنة عليهم، ومن ثم دارت رحى مجزرة لم يسلم من هولها أحد منهم، وقتل نحو الالف من الانكشارية في الأقسام الأخرى من المدينة وألقيت رايتهم ولباسهم المميز أي القلنسوة في الوحل وهدمت ملاهيهم ومقاهيهم التي ألفوا التردد عليها. ليس ذلك فحسب، بل حلت الطريقة (البكتاشية) المتصلة بالانكشارية، كما حلت فرق الاطفاء والحمالين ذات الصلة الوثيقة بها. ولم تغفل الدولة رجال المدفعية وحرس البوسفور، الذين تعلقوا هذه المرة بأهداب الولاء، على الرغم من أنهم كثيراً ما أيدوا الانكشارية وتضامنوا معهم، فقضت على كل امرىء منهم آنست

فيه ميولاً مؤيدة للانكشارية.

كانت المنافسة الاستعمارية الافرنسية- الانكليزية قد قطعت شوطاً بعيداً في مجال التوغل في المشرق الاسلامي، ولم تكن حملة نابليون على مصر، وتدمير الاسطول الافرنسي في أبي قير، سوى مظهراً من مظاهر هذه المنافسة (للسيطرة على تجارة الشرق - عبر طريق الهند) وقد اخذت فرنسا في انتهاج سياسة السيطرة على الشرق من خلال والي مصر (محمد علي) الذي وجه قواته الى اليمن، وبذلك وجدت بريطانيا نفوذها مهدداً بشكل قوي، ووجدت طريق الهند مقطوعة. وعلى كل حال، فان صراعاً متبايناً في الحدة كان يجري- منذ سنة ١٨١٧ م- بين القبائل اليمنية وبين القوة العسكرية المحدودة للحاكم الانكليزي في (مخا). وعند وصول الجيش المصري بقيادة ابراهيم باشا نفسه، ارسلت بريطانيا الكابتن (سادلر) بسرعة من بومباي- في سنة ١٨١٩- ليتابع عن قرب العمليات العسكرية ويبحث عن وسائل تعاون (انكليزي- مصري) لاعادة الهدوء الى البلاد. وكان الباب العالي ومحمد علي قد أدركا المطامع الاستعمارية الكامنة وراء هذا المسعى. فكتب السلطان الى والي مصر محذراً من النوايا الانكليزية في ١٥ تشرين الاول- نوفمبر- ١٨١٩. رسالة جاء فيها: «تهدف السياسة الانكليزية- بالنسبة للقضية اليمنية، الى ان تحتل تدريجياً بعض المواقع من أجل التمهيد لغزو محتمل لهذه المنطقة وايجاد الوسائل للتدخل في شؤونها»[1] ومع ذلك، فقد تدخلت بريطانيا بقواتها ضد (مخا)

---

(1) MOUSTAPHA FAHMI. EMPIRE EGYPTIEN SOUS MOHAMMED ALI ET LA QUESTION D'ORIENT. PARIS 1930P.60

وقصفت المدينة في كانون الاول- ديسمبر ١٨٢٠، وأرغمت الإمام على التوقيع على معاهدة سلام، وعلى احترام حقوق المقيم الانكليزي فيها، ممثل شركة الهند، في (١٥ كانون الثاني- يناير- ١٨٢١). ويذكر هنا أن بلاد المشرق الاسلامي كانت تتعرض في تلك الفترة لموجات من الجواسيس الذين يحملون واجهات علمية، بهدف التمهيد لتنفيذ المخططات الاستعمارية ومنهم على سبيل المثال (عالم الاثنوبولوجيا والرحالة ج. ل. بوركاردت ١٧٨٤ ١٨١٩) والذي كان يجتاز الجزيرة العربية في ثياب حاج مسلم تحت اسم الشيخ ابراهيم، فأوقفه (محمد علي باشا والي مصر) في الطائف سنة ١٨١٤ م باعتباره جاسوسياً انكليزياً. وقد استجوبه والي مصر طويلاً حول السودان والنوبة وبلاد الحبشة. وقد اثارت المعلومات التي حصل عليها محمد علي اهتمامه، واخذ في التحدث عن مشروع لغزو- الحبشة، مما أزعج بريطانيا، فبعثت بسفيرها لمقابلة محمد علي والتحدث اليه، وفي ٢٠ تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٢٠، أرسل السفير الانكليزي (سالت) نتائج مقابلته مع محمد علي باشا في تقرير، تضمن ما يلي:

«اغتنمت الفرصة لاعلن له بلهجة حازمة، بأن مشروع غزو الحبشة قد سبب لي بالفعل الماً حقيقياً لانني متأكد من أنه سوف لا يروق للحكومة البريطانية، إذ أننا نعتبر ان الحبشة واقعة تحت حمايتنا. ولقد لفت نظره الى أن الحبشة هي البلد الوحيد في أفريقيا الذي احتفظ بالدين المسيحي، والى أنها صمدت صموداً مظفراً خلال أجيال أمام هجمات المسلمين، والى أنه لا ينبغي لأحد أن يتوقع من أوروبا عامة، ومن انكلترا خاصة، ان تنظر بعدم المبالاة الى هذا البلد اذا ما تعرض للهجوم. وقد التزمت انا شخصياً بزيارة

هذا البلد لاقامة علاقات ودية مع حكامه. وهناك كثيرون من جمعية الكتاب المقدس في بريطانيا يهتمون بمستقبل هذا البلد. وعندما رأى سموه موقفي الجدي، غير لهجته وطمأنني بشكل معبر الى انه قد تخلى منذ الآن عن كل مطمع فيها، وذلك بالرغم من أن هذه المنطقة تغص بالذهب وبالاحجار الكريمة، وبالرغم أيضاً من أن غزوه لها مضمون وذلك حتى لا يتورط ولو للحظة واحدة مع حكومتنا»[١].

ظهر بوضوح أن (محمد علي باشا) والي مصر، كان يخشى انكلترا، ويحسب حسابها، ولهذا فإن انكلترا لم تعد تهتم بتطوير العلاقات الافرنسية وهذا ما كتبه القنصل الانكليزي في الاسكندرية في رسالة له يوم ١٩ حزيران ١ يونيو) ١٨٢٧، جاء فيها ما يلي:

«ما هي القيمة السياسية لصداقة الباشا للافرنسيين؟ انها، حتى ولو افترضناها نتيجة شعور بالعرفان، بسبب النعم والعلاقات الشخصية فماذا يمكن ان تساوي؟ فلنتركهم اذن يتمتعون بسلام بكل فوائد محبة (محمد علي) ما دمنا قادرين على السيطرة عليه بالتخويف:. هذا ما يجب أن يكون أساس سياستنا. ضعوا قوة انكلترا الهائلة في كفة الميزان، وضعوا حب الباشا للمتملقين والمتزلفين الافرنسيين في الكفة الاخرى، وسترون كفة من سترجح؟ . . »[٢].

لقد ترافقت سياسة المنافسة هذه،بمشاريع تقسيم الامبراطورية العثمانية، ولم يعد الحديث عن تقسيم تركة (الرجل المريض) سرياً

1- Ibid : PP . 66 « 68

2 « E . B. BARKER SYRIA AND EGYPT UNDER THE LAST FIVE SULTANS OF TUR KEY . P. p. 51 «52

أو في الخفاء. فقد ظهر في باريس كتيبان يتضمنان تلخيصاً لبعض الأفكار التي ظهرت في القرن الثامن عشر حول انحطاط الامبراطورية العثمانية. وضرورة توزيع مقاطعاتها على الامم الاوروبية التجارية. وكان الكتيب الأول عبارة عن منشور مغفل بتوقيع. ج.ج. صدر سنة ١٨٢١ م بعنوان (آراء حول أزمة الامبراطورية العثمانية الراهنة) ويدعو المؤلف من جديد في هذا الكتيب الى طرد الاتراك من اوروبا، وتوزيع بعض المواقع الاستراتيجية في البحر الأبيض المتوسط على الدول الاستعمارية وتبعاً لذلك ينبغي على فرنسا أن تطالب بجزيرتي قبرص وكريت أما الكتيب الثاني فمنسوب الى مؤلف يدعى. ب.أ. دوفو (١٧٩٥-١٨٧٧). ويحمل عنوان (حول تقسيم تركيا الاوروبية بين روسيا وانكلترا واليونان بواسطة فرنسا) ويقترح مضمون هذا الكتيب تكوين (امبراطورية يونانية) على أنقاض السيطرة العثمانية.

وفي هذه الاثناء، كانت مسألة العمل لتقسيم تركيا مسألة مطروحة فعلياً أمام الدبلوماسية الاوروبية. وفي ٤ تموز- يوليو- ١٨٢١ م. أرسل (نسرلود)[١] مذكرة دورية باسم روسيا موجهة الى الدول الكبرى يطالبها فيها بابداء رأيها بشأن مصير الامبراطورية العثمانية وكان القيصر يحث على التفاهم بين الدول الكبرى المعنية بشأن تقسيم كان يبدو له مستعجلاً ووشيكاً.

---

(١) - نسرلود: CHARLES ROBERT COMTE DE NESSERLODE ديبلوماسي روسي، من مواليد لشبونة (١٧٨٠- ١٨٦٢ م) عمل مفاوضاً مطلق الصلاحية لقيصر روسيا أثناء مؤتمر فيينا، ووجه السياسة الخارجية الروسية ايام حكم الكسندر الأول ونيقولا الأول (من سنة ١٨١٦ وحتى سنة ١٨٥٦ م).

وبعد ذلك باسبوعين كانت الحكومة الروسية تقترح على فرنسا تحالفاً شكلياً حول هذا الموضوع. ولكن الدوق (ريشيليو) كان يطالب بمشروع حسي- عملي- وهذا ما كان يرفضه القيصر. ورغم ذلك، كان يبدو أن شاتو بريان يؤيد هذا المشروع الروسي. حتى انه أرسل من سفارته في روما رسالة دعا فيها وزيره الى التفاهم مع قيصر روسيا بشأن تقسيم عادل للمقاطعات العثمانية - الأوروبية: «اذا اردتم- القيصر- الذهاب الى القسطنطينية فقوموا مع الدول المسيحية بتقسيم عادل لتركيا الاوروبية. أما الدول التي ليست في مركز يسمح لها بالتوسع من جهة الشرق، فتحصل على تعويضات في مناطق اخرى». وهكذا كان وزير الخارجية الافرنسي (شاتو بريان)[1] مستعداً للتنازل بكل طيبة خاطر عن القسطنطينية لروسيا مقابل مطالبته بكولونيا وريناني لفرنسا. أما الحكومة البريطانية فكانت على ما يظهر تسير على درب منفرد لوضع خريطة جديدة للقارة. أما بروسيا التي كان يجب عليها ان تتخلى عن مقاطعاتها الشرقية في رينانيا، فقد كانت ستحصل بالمقابل على مملكة (الساكس) التي سيعوض على أصحابها بمقاطعة ميلانو، وكانت

---

(١) شاتوبريان: VICOMTE FRANÇOIS RENE DE CHATEAUBRIAND
كاتب افرنسي من مواليد سانت مالو (١٧٦٨-١٨٤٨ م) سافر الى امريكا، وعاد الى فرنسا مع انفجار الثورة الافرنسية، ثم عاد فهاجر الى انكلترا سنة ١٧٩٢ ورجع الى فرنسا سنة ١٨٠٠ م. وكانت علاقاته مع نابليون بونابرت سيئة. وعندما رجعت الملكية عمل سفيراً لها في لندن، ثم وزيراً للخارجية من سنة ١٨٢٢- الى سنة ١٨٢٤ م. وكان أول كتاب اشتهر به هو (عبقرية المسيحية) الذي صدر سنة ١٨٠٢، ثم كتاب (الشهداء) الذي صدر سنة (١٨٠٩) و(الطريق من باريس الى القدس) الذي صدر سنة (١٨١١ م) وكتب كثيرة اخرى تميزت بالعبارة الرشيقة والاسلوب الاخاذ.

حدود هولاندا ستتغير أيضاً وفقاً لتلك المخططات. ولم يكن على كل حال هذا المشروع هو أول مشروع في أفق الديبلوماسية الغربية خلال تلك الفترة.

لقد كانت هذه الديبلوماسية المتنافسة (أحياناً) تسير بخطوات متوازية ومتكاملة، تشترك فيها انكلترا وفرنسا بالدرجة الاولى والنمسا وروسيا بالدرجة الثانيـة، ثم تأتي بروسيا بالدرجة الثالثـة. وكانت هذه المنافسة تصل الى مستوى الصراع احياناً، غير أنها سرعان ما تصل الى الاتفاق عندما يكون الأمر متعلقاً بالسيطرة على العالم الاسلامي من خلال الهيمنة عليه، وهو الأمر الذي أدركه حاكم مصر في مرحلة متأخرة عندما تحدث الى القنصل الروسي وهو يسدي نصائحه بصمت واهتمام، ثم قال له: **«اني أرى بأن بروسيا في عداد الدول التي باتت تتدخل في شؤوننا كما لو كانت الحكومات الاربع الكبرى غير كافية، وكأن من الضروري انضمام هذه الدوله الخامسة ـ وأرى أن المنطق يخضع لقانون الأقوى»**[1].

---

(١) رينه كتاوي (حكم محمد علي) ١٩٢ـ ٢٠٢ اصدار القاهرة.

٢ـ محمد علي باشا في مصر[١]

بقي المماليك هم القوة الحاكمة في مصر منذ نهاية الحروب الصليبية وامتد حكمهم لاكثر من ثلاثة قرون، حتى اذا ما جاء الفتح العثماني، لم يغير كثيراً من العلاقات التي كانت سائدة، غير أن حملة نابليون على مصر (١٧٩٨ م) دمرتهم في معركة الهرم،

---

(١) محمد علي باشا، من مواليد قواله على الساحل المقدوني (١٧٦٩ـ ١٨٤٨). كان عمه يشغل منصب (متسلم- أو نائب والي) وفي ديوان عمه هذا تمرس محمد علي بالاعمال والمعاملات من غير أن يحظى بتربية مدرسية صحيحة. حتى اذا بلغ سن العشرين كان قد نجح في تجارة التبغ وعقد الصفقات فيها، والتبغ مادة التجارة الرئيسية في بلده الام. وظهرت عليه امارات النزوع الى السلطة وقوة الشخصية منذ نعومة اظفاره. وعندما قام (نابليون) بغزو مصر، فأرسل السلطان سليم الثالث بضع سفن حاملة جنوداً الى مصر في صيف سنة ١٧٩٩. وكان على (عم محمد علي) أن يبعث الى مصر أيضاً بكتيبة مؤلفه من ثلاثمائة رجل، فعهد الى ابنه الصغير بقيادتها، وعين (محمد علي) مستشاراً لابنه. ولم تكد الكتيبة تصل الى مصر حتى تولى محمد علي القيادة الفعلية واظهر في المعارك التي قادها ضد الافرنسيين حتى اكرههم على الجلاء عن مصر من الكفاءة القيادية ما أهله للوثوب بقفزة واحدة الى منصب القيادة العامة في سنة (١٨٠١). وفي سنة ١٨٠٥، اصبح حاكم مصر بدون منازع، مستعيناً على بلوغ مأربه بشيوخ الأزهر. ووافق السلطان على تعيينه والياً على مصر. ومنحه لقب (باشا).

وأرسلت الخلافة قوة لمحاربة الافرنسيين تولى (محمد علي الالباني- الارناؤوطي) قيادة كتيبة منها، ثم لم يلبث حتى افاد من التناقضات التي اعقبت اخراج الافرنسيين من البلاد. وأصبح في سنوات قليلة الحاكم المطلق لمصر، وأظهر من الغيرة على الدين، والرغبة في الجهاد، والعمل لبناء مصر، ما جعله يستحوذ على محبة أهل مصر الذين التفوا حوله وساندوه. وخلال هذه الفترة ترك للمماليك حرية الحكم في اعالي مصر، حتى إذا ما شرعوا في مفاوضة انكلترا (وكان محمد علي قد هزم جيوشها التي حاولت النزول الى البر، عند رشيد، في نيسان- ابريل- سنة ١٨٠٧) قرر التخلص منهم. ودعا زعماءهم الى القاهرة في آذار- مارس- ١٨١١، زاعماً انه يبتغي استشارتهم في أمر حملة يريد شنها على الوهابيين في بلاد العرب. وهناك اعمل السيف في رؤوسهم (في ١١ من الشهر نفسه) وكانت عدتهم ثلاثمائة رجل. فدانت مصر لمحمد علي كما لم تدن لحاكم آخر من قبله. غير أن جنوده الالبانيين (الارناؤوط) الذين كانوا لا يزالون خاضعين خضوعاً بعيداً لتأثير الروح العثمانية، اظهروا تهاوناً فحاول قمعهم بالقوة، وادى ذلك الى نشوب فتنة في القاهرة سنة ١٨١٦ استطاع محمد علي إخمادها دون عناء كبير. وعلى أثر ذلك سرح جنوده الالبانيين واستعاض عنهم بالفلاحين المصريين الذين دعاهم الى الخدمة العسكرية. وانطلق لاعادة تنظيم البلاد داخلياً وعسكرياً على اسس جديدة.

بدأ محمد علي بالعمل للامساك باقتصاد مصر بقبضة قوية، فقام باحصاء عام للأراضي، ثم وزعها على الممثلين الرئيسيين للمجتمع المصري الريفي على أساس الاستفادة منها مدى الحياة.

ومكنه ذلك من تدعيم نظام حكمه، وكسب تأييد جماهير السكان العاملة. وفرض نفسه في الواقع كمالك فعلي وحيد للبلاد وكسيد لمصائرها الحيوية. وبعدما حقق كل ذلك، اختط لنفسه سياسة داخلية وخارجية ذات جوانب متعددة ومتكاملة: كان يسيطر بقبضته الادارية القوية على ثروات وادي النيل الضخمة، وثروات المناطق التي ضمها اليه، وكان يفرض نفسه على السلطان العثماني الذي أنهكته التهدئة العسكرية» **ورأى اتباع سان سيمون، رواد اشتراكية الدولة، في شخص محمد علي حاكماً يحمل لواء نظريتهم الاقتصادية ويعمل على تطبيقها»** والتفت محمد علي بعد ذلك الى الصناعة: «فنشر في مالطا بتاريخ ٤ نيسان- ابريل- ١٨١٤ اعلاناً يدعو فيه العمال من كافة الاختصاصات الى التعاقد معه للعمل. وفي السنة التالية أمر وكلاءه في العواصم الأوروبية الكبرى أن يزودوه بعمال مهرة ومتخصصين في صناعة النسيج التي كان ينوي دفعها الى الأمام. لقد أدرك أنئذ أهمية تحويل المواد الاولية الوطنية في مصر نفسها وبيعها مصنعة الى الخارج. وهكذا بدأت اليد العاملة في الهجرة الى مصر. وفي أثناء ذلك أقدم على مصادرة العمال الحرفيين في القاهرة والمقاطعات للعمل في المؤسسات التي أنشأها». «والى جانب صناعة النسيج أقام محمد علي صناعات اخرى مثل صناعة السكر والزجاج والدباغة والورق والبارود والمنتجات الكيميائية، وعهد بهذه الصناعات الى خبراء اوروبيين من مختلف الجنسيات» «**كذلك برزت أيضاً سياسةالانفتاح والتودد تجاه الخبراء الاجانب. والغى محمد علي القوانين التمييزية، واطلق حرية ممارسة الشعائر الدينية المسيحية جهاراً وإنشاء المدارس والكنائس، ومنح المساواة خاصة بالنسبة لليهود**». واقبل

الافاقون والمغامرون لتجربة حظهم في مصر، وعندما حذره المقربون اليه من الاختيار المتسرع للاجانب أجابهم: «انني اعرف انه بين الخمسين شخصاً الذين يأتون ليعرضوا علي خدماتهم هناك تسعة واربعون يمكن اعتبارهم حجارة كريمة مزيفة. الا انني لا أستطيع ان اكتشف الجوهرة الحقيقة الوحيدة بينهم دون تجربتهم جميعاً، اني اشتريهم كلهم، وعندما اكتشف العنصر الحقيقي بينهم فانه يعوض علي الخسارة التي سببها لي الآخرون» «وأرسل محمد علي عشرات الطلاب في بعثات خارجية - الى فرنسا بصورة خاصة- وسافرت البعثة الاولى المكونة من أربعين طالباً سنة ١٨١٨ م. ونظمت ادارة ومراقبة الطلاب الى الجغرافي جوزيف أيوب، استاذ اللغة العربية في ثانوية (سانت لويس الكبير) وكانت الدراسة مجانية على نفقة الحكومة وتشمل كافة الاختصاصات. وكان محمد علي ينتظر عودة المتخرجين الأوائل من أوروبا، ووصول اتباع سان سيمون الافرنسيين لكي ينظم وزارة التعليم العام. **وأقام مطبعة بولاق التي بقيت منشوراتها ذات شهرة في تكوين الثقافة العربية المعاصرة، والتي وضع اساسها الكاهن (دوم رافائيل) الى جانب ترجمات لأفضل الكتب الافرنسية والانكليزية».**

وفي مجال تنظيم الجيش، اعتمد محمد علي على ضابط فرنسي قديم اسمه «سيف- وعرف في التاريخ العربي باسم- سليمان باشا»[1] ثم اقام المدارس العسكريه لكافة الاختصاصات. وفي نهاية

---

(١) سيف (SEVE) واسمه جوزيف (JOSEPH) ضابط افرنسي، خدم في روسيا وغروشي وواترلو. حتى اذا رجعت الملكية الى فرنسا، بقي بدون عمل طوال ثلاث سنوات في فرنسا، ثم يمم شطر مصر، فقدمه المهندس المعماري (باسكال كوست) الى محمد علي، الذي الحقه في خدمته كمهندس أولاً، ثم عهد اليه بعد ذلك بمهمة =

سنة ١٨٢٣، انتهى محمد علي من مرحلة التنظيم، ووقف يستعرض قواته الجديدة والى جانبه قنصلا فرنسا وانكلترا.

«كانت الحكومة الافرنسية تنظر دائماً بعطف كبير، وتشجع باستمرار هذه النهضة المصرية. وقد أرسلت الى محمد علي بعد ذلك بأسابيع قليلة بعثة عسكرية استقبلها محمد علي بترحيب كبير. وكانت الحكومة الافرنسية تهدف من وراء ذلك الى توجيه مجرى الاحداث لخدمة مصالحها، وقد وصلت البعثة الى الاسكندرية بقيادة الجنرال (بوير) في ٢٤ تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٢٤ م. وفي السنة التالية (أب- اغسطس- ١٨٢٥) كان عدد ضباط البعثة قد ارتفع الى الضعف تقريباً. وكان الجنرال (بليارد) الذي تفاوض مع المراجع العليا بصدد هذه البعثة قد أعطى الجنرال- بوير- تعليمات ذات مغزى مستقاة من نصائح الوزارة الافرنسية» «**وكان على- بوير- أن يقنع محمد علي بعدة مبادىء وأن يجعله يتصرف بشكل يكسب فيه عطف أوروبا المسيحية. وهكذا فقد كان عليه أن يحمله على إعادة النظر بحملة المورة التي كانت تستنزف قوته العسكرية الناشئة بدون طائل، وتجعله على تعارض مع سياسة أوروبا المسيحية. فهو اذا ما حشد قواه من أجل اعادة البناء الداخلي عن طريق اصلاح البنى القائمة، فقد يجعله ذلك يحقق كسباً أكثر في نظر- العالم**

= تدريب الوحدات الجديدة في الجيش المصري. واعتنق (سيف) الاسلام في حزيران (يونيو) ١٨٢٤ ليؤكد انصهاره الكامل في النظام، غير ان معاونيه الافرنسيين الآخرين مثل (بلانا ودومرغ وكادو وكيسون وغيرهم) لم يحتذوا حذوه. وقد اسند هذا قيادة الفرق والكتائب الجديدة الى قادة **مرتزقة** من الافرنسيين والاسبانيين والايطاليين وسواهم. وأصبح (سيف) مستشاراً لابراهيم باشا في كافة حروبه. «المرجع: اوروبا ومصير الشرق العربي- جوزف حجار ١٢٠- ٢٦».

المتمدن- اما اذا أراد أن ينطلق في سياسة توسع وطنية - فان افريقيا وسوريا تشكلان امكانات عظيمة لا تحمل معها مجازفات ذات شأن».

«كانت الحكومة الافرنسية تفكر في الواقع باستخدام محمد علي لتنفيذ ما عجز نابليون بونابرت عن تحقيقه وهو السيطرة على مصر لتهديد طريق الهند. وعبر القنصل الافرنسي في القاهرة- دروفيني- عن هذه النوايا بصراحة تامة في رسالته الى وزير الخارجية الافرنسي (يوم ٧ آب - اغسطس- ١٨٢٦) حيث قال: «ان عملية البناء العسكري للقوات المصرية التي عهد بها الى بعثة الجنرال الافرنسي، تمهد للاحداث التي يجب أن تجعلنا يوماً ما نمتلك هذا البلد» وقد حدث ذلك في الوقت الذي كانت فيه الحكومة الافرنسية منصرفة لوضع مخطط أوسع شمولاً يضم المغرب الواقع على البحر الأبيض المتوسط. وقد اثار- دروفيني- نفسه فيما بعد اهتمام البا‌شا بهذا المخطط، الذي انتهى باحتلال الجزائر، حيث غادر بوير وكبار معاونيه مصر بعد ذلك مباشرة.

لم تكن الدول الغربية - وبصورة خاصة فرنسا- تهتم بزيادة القدرة العسكرية المصرية طالما أنها تسيطر على توجيه هذه القدرة ضد الامبراطورية العثمانية ذاتها من أجل اضعاف العالم الاسلامي من الداخل، ولم تكن هذه الدول تتردد في اعطاء محمد علي ظواهر الحضارة الغربية - عن طريق اقامة المصانع طالما أن هذه المصانع ترهق مصر بأكثر مما تفيدها. وهذا ما أشار اليه القنصل الافرنسي في مصر: «ان وضع محمد علي المالي يزداد خطورة شيئاً فشيئاً. . . وان تشبثه في اقامة المعامل التي لا تعود عليه بأي ربح قد استنزف

موارده. ان بناء وصيانة المصانع تقدر هذه السنة (١٨٢٦) بعشرين مليون فرنك. ورغم هذا فقد أقدم على حفر عدة أقنية اضافية، وأمر بتنفيذ اشغال اخرى من هذا النوع».

خلال هذه الفترة كانت الثورة اليونانية تتطور باستمرار. وأراد الخليفة العثماني الافادة من قدرة الجيش المصري، فطلب الى محمد علي التدخل ووعده بمنحه (المورة)[1] ونفذ محمد علي ما طلبه السلطان. وكان ذلك مخالفاً لمخططات الدول العظمى التي أرادت استخدام قوة محمد علي ضد العالم الاسلامي لا ضد الصليبية الأوروبية، فبدأت الدول الأوروبية الغربية في التحرك المضاد. وتمخض هذا التحرك عن التقارب الانكليزي- الروسي الذي انضمت اليه فرنسا بعد فترة قصيرة، وبات هذا التقارب هو الذي يوجه الدبلوماسية الاوروبية نحو حل المسألة اليونانية. فبعد مفاوضات دقيقة تم التوقيع على بروتوكول (سان بطرسبورغ) في ١٣ آذار- مارس- سنة ١٨٢٥ م. وقبل الموقعون على هذا البروتوكول مبدأ التدخل الاوروبي في شؤون الامبراطورية - الخلافة- العثمانية من أجل ما أسموه (وضع حد للحوادث التي كانت تثير الاضطراب في المشرق). وأصبح موضع العالم الاسلامي اعتباراً من هذا التاريخ تحت مبضع التشريح الذي تمسك به القبضة الاوروبية، غير أن اوروبا حاولت قبل اللجوء الى التدخل المسلح،

---

(١) المورة: (MOREE)، شبه جزيرة في اليونان حالياً، حملت هذا الاسم منذ القرون الوسطى، وهي تتبع جغرافياً شبه جزيرة البيلوبونيز (PELOPONNESE) الواقعة الى جنوب اليونان والمتقطعة بدورها الى مجموعة من شبه الجزر التي تتصل ببرزخ كورينث، وتضم الارغوليد ولاكوني ومسينا واليد واخاي واركادي.

اقناع محمد علي بالتخلي عن الخلافة العثمانية، لانها لم تكن تريد له التدخل كطرف ثالث في الصراع الدائر بين الخلافة الاسلامية وأوروبا المسيحية، واخدت الدول الكبرى تغري خياله الطموح بمناطق اخرى من الامبراطورية العثمانية تكون (أكثر ربحاً) من ولاية المورة التي منحها له السلطان العثماني، فكان البعض يغرونه بخيرات سوريا، والبعض الآخر يصورون له بمبالغة النفوذ الذي سيكسبه من فتح بلاد المغرب العربي ـ الاسلامي. وكانت الديبلوماسية الانكليزية تريد له سوريا، فكتب وزير الخارجية الانكليزي (ستراتفورد كانينغ) الى قنصله في الاسكندرية (سالت) رسالة بتاريخ ١٠ حزيران- يونيو- ١٨٢٦ جاء فيها: «اذا استطعنا أن نحمل محمد علي على فهم مصالحه الخاصة، الى حد دفعه الى تبني وجهات نظرنا، فلا شك في أن مساهمته ستساعد على نجاح مفاوضاتنا. وسيكون من الافضل له التنازل عن جزء من الجزية التي سيدفعها اليونانيون مقابل احتفاظ ابنه بولاية سوريا» وكان ستراتفورد كانينغ قد أرسل مثل هذه التعليمات الدقيقة الى سفيره في القسطنطينية (جورج كانينغ) في الرابع من حزيران- يونيو- ١٨٢٦ كالتالي: «**ان اغراء محمد علي بسوريا كحل للازمة اليونانية يدخل في نطاق بروتوكول سان بطرسبورغ، فهل من الممكن اقناع والي مصر، بالتجاوب مع الوساطة بصدد المسألة اليونانية وذلك عن طريق اعطائه الأمل في ولاية سوريا، وبوعده، اذا كان سلوكه حسناً بمساعدة معينة في مشاريعه لبناء السفن؟ اني أفهم تماماً أن بروتوكول سان بطرسبورغ لا يعني استخدام القوة، إلا أنه لا يقول بأي رفض لهذه الوسيلة...**».

كانت عروض القنصل الافرنسي (دروفيني)[8] المبطنة ومساعدة البعثة العسكريـة والبحرية تغذي أوهام محمد علي، وفي آب- اغسطس- ١٨٢٥، نزال الكولونيل ري ومعه عدد من التقنيين في الاسكندرية، ومعه عدة نماذج من المدافع الحربية قدمها (شارل العاشر) وكان ري مكلفاً باعادة تنظيم ترسانات ومعامل الاسلحة. وفي نيسان (ابريل) ١٨٢٧، وصلت ايضاً، بناء على طلب والي مصر، بعثة بحرية افرنسية اخرى. وبعد فترة قصيرة انضمت السفن الجديدة التي أوصى عليها في أوروبا الى اسطوله البحري (بين حزيران وآب - يونيو وأغسطس - ١٨٢٧) أي قبل هزيمة نافاران مباشرة.

عملت فرنسا بعد ذلك على تطوير علاقاتها مع مصر محمد علي باشا، وتوثيق عرى التعاون في كل المجالات. ففي ١٨ آب- اغسطس- ١٨٢٨، نزلت في الاسكندرية بعثة علمية تضم بين أعضائها الشاب (شامبوليون) والسيد (لونورمان) ورسامين وعالم طبيعي ومهندس معماري وكانت مهمة البعثة القيام بأبحاث تنقيب عن الآثار، وبفك رموز الكتابة الهيروغلوفية (المصرية القديمة). وفي الخامس والعشرين من الشهر ذاته، وصلت بعثة دبلوماسية اخرى مؤلفة من (الكونت دوسان يجي) ابن اخ المسيو (دوهيد دونوفيل) وزير البحرية. والمسيو كرو، من وزارة الخارجية، واجتمعت مطولاً الى محمد علي الذي كان يعيد بناء اسطوله ويرغب في توسيع ترسانته في الاسكندرية، وان يقيم فيها ورشات لبناء السفن بمساعدة التقنيين

---

(١) دروفيني : DROUYN DE . LIUYS EDOUARD ديبلوماسي (فرنسي، من مواليد باريس (١٨٠٥- ١٨٨١ م) أصبح وزيراً للخارجيه الافرنسية في عهد الامبراطورية الثانية (نابليون الثالث).

الافرنسيين. وقد وقعت مهمة القيام بهذه العملية الصعبة على عاتق (لوفيبور دوسيريزي) الذي وصل في نيسان- ابريل من سنة ١٨٢٩م. وفي غضون عام ١٨٢٩ ايضاً وصل الى مصر (مسيو بوكي ديشان) والسيدة (ايد سانت ايلم) اللذان خلقا وضعاً ظريفاً ومسلياً لاقامتها، **وكان الهدف البعيد لهذا الغزل الافرنسي المصري الطويل هو احتلال المغرب العربي- الاسلامي- (أو الدويلات البربرية كما كانت تسميها فرنسا). وبعد هذه المكاسب الاولى التي حققها- دروفيني- حاولت بعثتا (هودر- و- لانفسدورف) دفع محمد علي الى هذه المغامرة الافريقية ضد مقاطعات شبه مستقلة. الا أن رفض باشا مصر كان مهذباً. فقد كان هناك سببان رئيسيان لإيقافه عن سلوك هذه الطريق الخطرة والبعيدة: اولهما التحالف مع أمة مسيحية ضد المسلمين، وثانيهما، ادراكه بأنه يستعمل اداة لهذا الاحتلال. ولقد صرح أمام دروفيني: بان مثل هذا التحالف قد يكون قاضياً بالنسبة اليه، وان العالم الاسلامي قد يتخلى عنه ساخطاً. ثم انه كان يعرف مدى معارضة انكلترا لمثل هذا التوسع الافرنسي وهو الذي كان يعير السياسة الانكليزية- طوال حياته- حذراً حقيقياً»[1].**

واذا كانت فرنسا لم تكسب اقحام قوة سحمد علي في المغرب العربي الاسلامي، فيكفيها منه انها عزلت المغرب العربي الاسلامي عن الامبراطورية العثمانية، وضمنت حياد قوة مصر عند تدخلها ضد دول المغرب.

---

(1) G. DOUIN (L'EXPEDITION D'ALGER) PARIS 30

٣ـ معركة نافاران (١٨٢٧ م)[١]

اندلعت نار الثورة اليونانية ضد الخلافة العثمانية بزعامة (ابسلانتي) في سنة ١٨٢١ م. وفي سنة ١٨٢٣ اعترفت انكلترا باستقلال اليونان، وحذت روسيا حذوها حفظاً لنفوذها في البلقان، وانضمت اليهما فرنسا. فتم تشكيل التحالف الثلاثي. وأرسلت مذكرة بذلك عن طريق انكلترا، لانذار الخليفة، غير أن السلطان محمد رفض الانذار، وأنكر على دول اوروبا مجتمعة التعرض لشؤون السلطنة العثمانية، وعلى أثر ذلك بدأت دول الحلف في تنظيم قواتها للتدخل المسلح، واستثارة الرأي العام المسيحي كله تحضيراً لحرب الانفصال الاولى ضد العثمانيين، مدعمين في ذلك باندفاع رومانسي ألهب مشاعر اوروبا كلها ودفعها لحمل راية الصليبية. ومقابل ذلك طلب السلطان محمد مساعدة جيش محمد علي لسحق هذه الانتفاضة، وفي ١٦ كانون الثاني- يناير- سنة ١٨٢٤، صدر مرسوم (فرمان) يقضي بالتنازل عن ولاية المورة

---

(١) نافاران: (NAVARIN) مدينة في البيلوبونيز، اقليم مسينا، وبها خليج على البحر الايوني.

لمحمد علي. فتم بذلك تكليفه بحكم هذه المنطقة الثائرة حكماً فعلياً. وفي العاشر من شهر تموز التالي، كان ابراهيم باشا ـ ابن محمد علي ـ يبحر من الاسكندرية باسطول مؤلف من (٦٣) بارجة و(١٠٠) زورق نقل وبجيش قوامه (٦٠) ألف رجل. وكان يرافق ابراهيم باشا هيئة اركان نصفها أوروبي، ونصفها شرقي. وامكن لهذا الجيش أن يقضي على الثوار اليونانيين، ويدمرهم مع مدربيهم ومعاونيهم وانصارهم الاوروبيين. واهتمت اوروبا بهذا التطور الذي احبط سياستها الرامية الى تحرير اليونان، ودفعت الدول الصليبية الكبرى، للمرة الاولى منذ مائة عام، على التشاور والتحالف للقيام بهجوم مضاد. وكان امبراطور روسيا ـ نيقولا ـ هو أول من استثمر هذا التحالف فوجه انذاراً مباغتاً الى الخليفة العثماني يوم ١٧ آذار ـ مارس ـ ١٨٢٦م طالبه فيه بجواب حاسم خلال ستة اسابيع، والا فسيقطع العلاقات الديبلوماسية ويحمله كل العواقب المترتبة على مثل هذا الإجراء. وفي يوم ٨ أيار ـ مايو ـ وجدت تركيا نفسها مرغمة على القبول بفقرات هذا الانذار الذي كان يقضي بمنح مقاطعات مولدافيا وفالاشيا وصربيا البلقانية استقلالها الذاتي. وفي أثناء ذلك كان الاتفاق الروسي الانكليزي قد رسم بالضبط حدود هذا الاستقلال الذاتي الذي فرض على الباب العالي، تحت طائلة تدخل مسلح تشترك فيه فرنسا ايضاً، وكان يقصد من وراء ذلك إيقاف تقدم الجيش المصري الذي كان يستعد لمهاجمة أثينا بعد ان احتل (ميسولونجي).

تابعت القوات العثمانية ـ المصرية القضاء على ثورة المورة، وأرسل السلطان دعمًا إلى (ابراهيم باشا) يتكون من (٤) آلاف

جندي من المشاة و(٥٠٠) من الفرسان. والقى مراسيه الى جانب الاسطول المصري في نافاران. وعلى اثر ذلك اجتمع مؤتمر لندن- الذي لم تشترك فيه النمسا- يوم ٦ تموز- يوليو- ١٨٢٧، وأسفر المؤتمر عن معاهدة لحل الازمة التركية- اليونانية بالقوة - اذا ما تطلب الأمر. وأرسلت هذه الدول اساطيلها الى الشرق لانفاذ قرارها، وارسلت الاميرالية البحرية الانكليزيه الى قائد اسطولها في البحر الابيض المتوسط (الاميرال كاردنجتن) بتلقي الأوامر من سفير انكلترا في القسطنطينية. فأقلع الاميرال الانكليزي من (ازمير). ورافقه الاسطول الافرنسي بقيادة (الاميرال ريني) وتوجها معاً الى (نافاران) في جنوبي- غربي المورة ولحق بهما الاسطول الروسي. وكتب الاميرال الانكليزي الى (ابراهيم باشا) يطلب اليه التوقف عن ضرب اليونان ريثما تنتهي المفاوضات بين السفراء والباب العالي. فوعدهم ابراهيم باشا وعداً شفهياً بانه لن يحرك اية قوة ضد اليونان حتى ترد اليه اوامر جديدة من الباب العالي.

واستمر اسطول الحلفاء في محاصرة (نافاران) والاسطول الاسلامي. ورأى قائد الاسطول اعمدة من الدخان تتصاعد في الموره، فكتب الاميرال الانكليزي من جديد لابراهيم باسم الحلفاء، أن يتوقف عن كل نشاط عسكري في المورة. فورد له جواب من اركان حرب ابراهيم باشا: «بانه غاب منذ يومين ولا يعرفون له مقراً». ودخلت اساطيل الحلفاء على الفور مياه (نافاران) وحلّت بين البوارج التركية والمصرية. ودارت معركة حاسمة تركز فيها الجهد على الاسطول التركي- العثماني، وفي ظرف (٦) ساعات غرقت قطع الاسطول العثماني بكاملها مع بعض القطع المصرية. ولم تشرق شمس يوم ٢٢ تشرين الاول-

اكتوبر- ١٨٢٧ حتى كان الحلفاء قد دمروا القدرة البحرية العثمانية، ونفذواالعمل الذي بدأته المحالفة المقدسة سنة١٥٧١م. وكان ضياع هذه القدرة البحرية هو نقطةالتحول الحاسمة في الصراع الاسلامي- الصليبي. اذ أنها فصلت ما بين المشرق الاسلامي- والمغرب الاسلامي والذي كان البحر وسيلة الاتصال الاساسية فيه. وخسر العثمانيون اكثر من مائة بارجة وسفينة لم يكن من السهل تعويضها.

استجاب الباب العالي لهذا الهجوم الوحشي الذي تم في رابعة السلم، فاستولى على جميع القطع البحرية الأجنبية الراسية في القرن الذهبي. وبعد مفاوضات فاشلة، غادر ممثلو الحلف الثلاثي (استانبول). غير أن الحرب على الباب العالي لم تعلن، وبدأتها روسيا في ايار- مايو- ١٨٢٨ م بعد استعدادات ضخمة. وعلى الرغم من ذلك فقد عجزت الجيوش الروسية في السنة الاولى عن احراز أي نصر، سواء في البلقان، أو في القبق (القوقاز)، فلما كان ربيع سنة ١٨٢٩ تولى الامير (ديبتش) قيادة الجيوش الروسية في اوروبا. فحاصر (شملا) التي اوقفت تقدمه من قبل، وتابع تقدمه حتى (أدرنة) حيث فرض شروط معاهدة الصلح على السلطان في ١٤- ايلول- سبتمبر- ١٨٢٩ م. وتخلى العثمانيون بموجب هذه المعاهدة للروس عن جزر الطونة (الدانوب) والمقاطعات التركية الواقعة في (القبق- القوقاز) وارغم السلطان ايضاً على الاشتراك في معاهدة لندن، فاجبر بذلك على الاعتراف باستقلال اليونان.

وصل خبر هزيمة الاسطول الاسلامي في (نافاران) الى

الشرق في مطلع تشرين الثاني- نوفمبر- وإذ توقع حكام مصر وسوريا هياج الجماهير، اصدروا الأوامر المشددة لحماية القناصل وجاليات التجار الاوروبيين. وقد نقل القنصل الروسي في الاسكندرية هذه الوقائع الى حكومته بتاريخ ١٣ كانون الأول- ديسمبر- ١٨٢٧. واضاف ان خبر الهزيمة لم يحدث النتيجة المرجوة: أي أن يرضخ السلطان لمطالب الحلفاء. وكانت ردة الفعل الاولى لمحمد علي عند قراءته هذه الاخبار ان هتف قائلاً: (الاقوياء دائماً على حق). وبعد هذا بقليل- أي في يوم ٢٧ كانون الاول- ديسمبر- كان القنصل الروسي- بزوني- ينقل الى الاميرال- هايدن- الذي كان في- مالطا- الحالة النفسية لمحمد علي بقوله: **«... ان حدث نافاران لم يؤثر على نفسية محمد علي، وانه افاد من هذه الفرصة ليكرر بانه، بصفته طائعاً لارادة السلطان، لا يأسف لفقدان سفنه، وان الخليفة سيجده دائماً مستعداً لبذل كل الجهود الممكنة لمساعدته اذا ما قرر استئناف الحرب، أما بالنسبة للنكبة التي حلت باسطوله في نافاران فأشار الباشا بكل برود الى انه كان يتوقع هذا»** وعندما اطلع القنصل محمد علي على ما نشرته الصحف عن قضية نافاران، وعن العدوان الذي قام به الاتراك، اعلن هذا الأخير **«بأن هذا العدوان لم يصدر عن هؤلاء، ولكن الاقوياء يريدون دائماً أن يكونوا على حق»** لم يفصح محمد علي للقنصل، وهو الدبلوماسي المحنك، بكل ما كان يفكر به، بالرغم من أن هذا الأخير كان مكلفاً من قبل الاميرال الروسي- هايدن- بتاريخ ١٧ كانون الاول- ديسمبر- بالتأكيد له بأن الدول الكبرى لم تكن تريد شيئاً بشكل مباشر من مصر، ولا من الامبراطورية العثمانية، ولكنها كانت ترمي فقط الى منح الاستقلال الذاتي لليونان، لذلك

فقد نصح محمد علي بالبقاء على الحياد في هذا الصراع: «ليس عندي في الوقت الحاضر أية تعليمات أريد أن أبلغك اياها سوى أن في استطاعتك ان تقول لباشا مصر ان روسيا ليس لها أي مطمع لا في مصر ولا في تركيا، وان رغبتها الوحيدة هي ان ترى السلام وقد عاد عن طريق وضع حد للآلام التي تحاصر اليونان. وأن الوسيلة الوحيدة التي تراها الدول الكبرى الثلاث هي في الاعتراف لليونان بكيان سياسي يضمن لها العيش بهدوء. وان باشا مصر، يحسن صنعاً لخيره وخير الانسانية بالوقوف على الحياد في هذا القتال اذا ما قدر له أن يستأنف».

تجدر الاشارة الى تلك الحاشية التي اضافها الاميرال الروسي- هايدن- في رسالته الى قنصل بلاده في الاسكندرية- والتي جاء فيها: «**ان حوالي عشرين سفينة مصرية تركت عمداً، بمنأى عن نيران الحلفاء وذلك لكي يثبتوا لمحمد علي ان نواياهم لم تكن عدائية لمصر عندما دخلوا الميناء**» وفي مطلع عام ١٨٢٨ ابلغ الاميرال الروسي (هايدن) حاكم مصر محمد علي، بعزم الحكومة الروسية الاكيد على اقامة علاقات طيبة معه، كما كان الحال قبل الأزمة لكونه هو شخصياً مستعد للقيام بأي شيء للحفاظ على (حسن التفاهم) ورغم ذلك فقد كان وضع محمد علي يزداد صعوبة، اذ كان عليه التوفيق بين مقتضيات الطاعة للسلطان، وبين مقتضيات مصالحه الخاصة. وكانت انكلترا قد أوفدت اليه العقيد (الكولونيل كرادوك) ليقنعه بسحب جيوشه من المورة نهائياً. كما كان هو نفسه يؤكد انه سيكتب الى السلطان بهذا الموضوع، وانه سيستعمل التعابير الحازمة للحصول على نتيجة مرضية. وكانت فرنسا تريد بدورها ازالة أثار (هزيمة نافاران)،

والاستمرار في تشجيع مصر على المضي بسياستها الاستقلالية.
فعينت (دوفيتي)صديق الباشاالقديم **قنصلاً عاماً في الاسكندرية.**
ووصـــل (دوفيتي) الى الاسكندرية في ٦ كانون الثاني- يناير- ١٨٢٨. وهو محمل بالهدايا الملكية من قبل حكومته. ومنذ ذلك الحين، أصبح يتتبع محمد علي في كل تنقلاته وذلك بهدف استمالته وادخاله ضمن المخططات التي كان يراد منه أن ينفذها. وكانت المسألة تتعلق بتشجيع الباشا على الاستقلال وعلى القيام بتشجيع من فرنسا، بحملات يمكن أن تبعث من جديد لصالحه، نفوذ وحقيقة الامبراطورية العربية، القومية.

لقد اراد الحلفاء تحطيم مقاومة السلطان العثماني من خلال التدمير المتعمد والمنتظم للاسطول العثماني في (نافاران) غير أن هذه الهزيمة جعلت السلطان اكثر تصلباً في موقفه. فأخذت الدول الأوروبية التي فشلت باقناع السلطان (بفضائل السلم) بالتوجه الى محمد علي للافادة منه كأداة لاقناع السلطان. واخذ محمد علي في كتابة رسائل الى السلطان والى اصدقائه بالديوان، بضرورة الجنوح الى السلم (بحجة بناء القدرة الذاتية) وفي رسالة له جاء ما يلي: «**لقد سبق وكتبت اليك بان مصيرنا مرتبط بخيط واه، وقصدت بهذا بالضبط ان اعالج العواقب الخطيرة التي تتهدد وجود الأمة ووجود الدين الاسلامي. أما بالنسبة للكرامة التي تذكرها فانها لا تعطى بل تؤخذ بالافعال التي تجهد النفس، اذا صح التعبير، وهي تقضي بالعمل على تقوية الدولة وتنمية مواردها وقوتها بمجهود كبير لا يعيقه شيء... وفي مثل هذه الظروف فان القبول بالسلام يبرز كواجب يأمرنا به مثل محمد ذاته ﷺ في حروبه مع أعدائه. ان السلام يصبح أمراً ضرورياً في حالة**

الانحطاط الراهنة التي تحل بالامبراطورية العثمانية، والتهرب من هذا عن طريق اللجوء الى المشاعر الانانية، أو الاندفاع الزائد لا يفيد شيئاً، إلا أن لا شيء يحملنا لأن نيأس ونقنط من قضيتنا نفسها،وأن نرمي بذلك الدولة والدين في كارثة نكون المسؤولين عنها أمام الله والتاريخ».

لقد بقي موقف السلطان صلباً، وهو ما عبر عنه مبعوث النمسا في رسالة كتبها الى فيينا من القسطنطينية، يوم ١٥ آذار- مارس- ١٨٢٨ وجاء فيها: «لا شيء استطاع ان يحمل السلطان على تغيير موقفه، وسواء كان هذا الموقف صادراً عن خوف من خطر قد يتهدده اذا تراجع أمام مقترحات الدول الكبرى، أم أنه كان ناجماً عن حرج ديني مبالغ فيه، ام عن تجاهل لواقع لا علاج له، فان الواقع هو أن مقاومته ازدادت ولم تضعف». غير انه لم يمض اكثر من شهرين حتى استطاع محمد علي وبطريقة مذهلة اقناع السلطان بالموافقة على سحب جيوشه من المورة، وكذلك استطاع اقناع ابنه ابراهيم الذي كان السلطان يريد أن يستبقيه في المورة. وكان- محمد علي- يعود مفاوضيه شيئاً فشيئاً على تقبل هذا الحدث. إلا أن الاتفاق النهائي بين الجانب المصري والاميرال الانكليزي (ادوارد كودرينغتون) لم يوقع إلا في الخامس من آب- اغسطس- ١٨٢٨ م. وكان القنصل الافرنسي دروفيني قد ساهم بقسط كبير في ازالة الصعوبات من الجانب المصري. وانسحبت مصر من المورة واخذت في الاستعداد للتحولات الجديدة.

كان من أول هذه التحولات التوقف عن دعم الامبراطورية

العثمانية في صراعها ضد روسيا وذلك استجابة لتحذير قائد الاسطول الروسي الاميرال (هايدن) الذي حمله القنصل بيزوني الى حاكم مصر. وكان في التحذير: «**فليبق محمد علي هادئاً ولا يتدخل في حربنا، هذا ما نستطيع ان ننصحه به. وسيجد نفسه مرتاحاً في نهاية المشهد. وإلا فانه سيخسر اسطوله ومصره. ان الدول الكبرى الثلاث لا تتحرش به، ولن تتحرش به وذلك من أجله ولصالحه. اننا لا نخشاه، لا بل على العكس، فسنكون مسرورين لو تمكنا من الاستيلاء على بعض سفنه الجميلة لكي نزين بها اسطولنا ولكننا وفرناه. وخاصة أنا...**».

أما التحول الثاني فهو الاستقلال بمصر والاستيلاء على سوريا بالتعاون مع روسيا وبدعم من فرنسا. وبحياد من انكلترا.

وكان ذلك هو الموقف الذي توافق في الزمن مع الهجوم الافرنسي على الجزائر. والذي يمكن تلخيصه بعزل الجزائر براً وبحراً عن كل امكانات للدعم من قبل الخلافة العثمانية.



مدينة الجزائر ومرساها في القرن الثامن عشر

﴿يَا أَيُّها الذين آمنوا إِذَا لقيتُمْ فئة فاثْبُتوا
واْذكُروا اللّهَ كثيراً لَعَلكم تُفلحونْ﴾

(سورة الأنفال الآية ٤٥)

الفصْل الثانيْ

١- ذريعة الاستعمار (البراغماتية)
٢- عشية ليل الاستعمار
٣- بدايات المقاومة
آ- فئات من المجاهدين
ب- ثورة ابن زعمون
ج- سيدي السعدي والجهاد
د- ثورة الآغا محي الدين المبارك
هـ- بومزراق- باي تيطري-
و- الحاج احمد باي قسنطينة
ز- حمدان خوجة والصراع السياسي
٤- الادارة الافرنسية (وتكوين وحدات خاصة)
٥- الادارة الافرنسية (من التردد الى التصميم)

١ـ ذريعة الاستعمار (البراغماتية)

خرجت فرنسا من مجموعة الحروب الأوروبية (وأبرزها حرب السبع سنوات وحرب الوراثة الاسبانية)[1] وهي مجردة من مناطق نفوذها في اوروبا ومن مستعمراتها فيما وراء البحار. في حين أصبحت انكلترا وقد امتلكت قدرة بحرية ضخمة جعلتها سيدة البحار في العالم، وانتزعت من فرنسا مناطق تجارتها وجردتها من مستعمراتها. وظهر بوضوح أن تفوق القوات الافرنسية في البر قد عجز عن منافسة القوات الانكليزية في البحر. غير أن انفجار الثورة الافرنسية قد ضمن لفرنسا تأمين موارد بشرية ضخمة عبرت عنها الحروب النابوليونية أفضل تعبير. وقد حاولت فرنسا الانتقام من انكلترا عبر دعمها لحرب الاستقلال الامريكية (التي انتهت سنة ١٧٨٣) غير أن هذه الحرب لم تفد فرنسا شيئاً من الناحية الاقتصادية. كما حاولت فرنسا الثورة قطع طريق الهند باحتلال نابليون لمصر (١٧٩٨) غير ان

---

(١) حرب السبع سنوات هي الحرب التي قادها فريدريك العظيم ضد النمسا وفرنسا وروسيا لتوحيدالمانيا ويطلق على القسم الثاني منهاالحروب السيليزية(١٧٥٦-١٧٦٣م) أما حرب الوراثة الاسبانية فهي الحرب التي قادتها انكلترا والنمسا والامارات الالمانية ضد فرنسا (١٧٠٢ـ ١٧١٤)

الاحتلال الافرنسي فشل وعاد نابليون لفرنسا ليتابع الصراع من أجل (عظمة فرنسا) وانتصرت الاحلاف التي نظمتها انكلترا على نابليون في واترلو (١٨١٥) واعيدت الملكية الى فرنسا في شخص لويس الثامن عشر، الذي توفي سنة (١٨٢٤) ليترك لخلفه (شارل العاشر) اعباء التركة الثقيلة. ولم تفلح فرنسا في كل حروبها حتى الآن في اقتحام الحصار الاقتصادي الذي فرضته عليها انكلترا، فاستمرت في البحث عن اسواق لتجارتها وعن موارد المواد الاولية لصناعتها.

كانت علاقة فرنسا بالخلافة العثمانية جيدة طوال هذه الفترة، فقد وقفت استانبول الى جانب باريس اثناء صراعها ضد الاسبانيين في حروبها المتتالية (منذ ايام شارلكان أو شارل الخامس) ومنحتها (امتيازات قنصلية) للتجارة مع اقاليم العالم الاسلامي. ووقفت الجزائر الى جانب فرنسا في اصعب الظروف واقساها. وقدمت لها الدعم والعون كلما احتاجت لهذا الدعم. وكانت فرنسا قد اقامت لها من قبل اسواقاً تجارية (مؤسسات) في عنابة والقالة ورأس بونة والقل. وكانت هذه المؤسسات تدفع ضريبة سنوية متفقاً عليها الى دار الخلافة العثمانية من جهة، والى باي قسنطينة من جهة اخرى نظراً لقيام هذه المؤسسات على أرض ولايته. وكانت فرنسا مقابل ذلك تتمتع بحق صيد المرجان وتصدير الحبوب الى أوروبا[1]. وقد تطورت هذه العلاقات لمصلحة فرنسا في فترة الثورة الافرنسية، حيث اعترفت الجزائر بالجمهورية الافرنسية الجديدة في وقت كانت فيه تحت الحصار الاوروبي المحكم. وتكونت بين الدولتين علاقات ودية خاصة باستثناء فترة الحملة الافرنسية على مصر (١٧٩٨- ١٨٠٢) حين طلب

---

(1) HISTOIRE DE LA CONQUETE D'ALGER (A. NETTMENT) PARIS 50 P.P. 96 102

السلطان من الجزائر إعلان الحرب على فرنسا. وكانت الجزائر قد قدمت الى فرنسا الثورة قرضاً في سنة ١٧٩٦ بقيمة مليون فرنك ـ بدون فائدة ـ على ان تستعمل فرنسا هذا المبلغ في شراء الحبوب من الجزائر. وفي سنة (١٧٩٤) أذنت الجزائر للحكومة الافرنسية أن تتمول في موانىء الجزائر يوم كانت كل الموانىء والاسواق الاوروبية مغلقة في وجه التجارة الافرنسية. غير ان العلاقات الودية تغيرت في عهد (نابليون بونابرت) بسبب (غزو مصر). ولكن السلام عاد من جديد في سنة (١٨٠١) واعادت الجزائر الى فرنسا امتيازاتها (صيد المرجان والتجارة).

وعندما وصل قنصل نابليون الى الجزائر، لم يحمل معه الهدية التي اعتاد القناصل تقديمها ـ رمزاً للخضوع ـ وحين طلبها الباشا مصطفى رسمياً من القنصل (ديبوا تانفيل) على اساس انها شيء واجب، رد عليه نابليون برسالة ساخطة هدد فيها بتحطيم الأسطول الجزائري. وأنذر بان فرنسا على عهده ليست هي فرنسا التي كانت في عهد (آل بوربون). فتوترت العلاقات من جديد، وقامت الجزائر باحتجاز سفينتين فرنسيتين وضربت اخرى في ميناء تونس. فكتب نابليون الى الباشا مصطفى يطالبه بدفع تعويض عن الخسائر، ومعاقبة الوزراء المسؤولين عن هذه الحوادث. وكان نابليون يحلم بجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة افرنسية لذلك فقد كان يخطط لحملة كبيرة ضد دول المغرب العربي ـ الاسلامي، واقامة مستعمرات عسكرية افرنسية هناك، وضم المنطقة الى امبراطوريته في البحر المذكور. وتنفيذاً لذلك، طلب من الافرنسيين الذين كانوا أسرى في الجزائر أو الذين عاشوا فيها، معلومات عن سكانها وتحصيناتها، فأوصى قنصل فرنسي سابق في الجزائر (هو جون بون سان ـ اندري) بضرب الجزائر ضربة

قوية وسريعة وانهاء الحرب في ثمانية أيام. واقترح فرنسي آخر بنزول حملة افرنسية قرب (تنس) والهجوم على مدينة الجزائر براً. ولكن نابليون تخلى عن مشروع الحملة لانشغاله بالحروب على ساحة اوروبا. ولكنه ارسل الى الجزائر قطعة من اسطوله (بقيادة الاميرال ليسيغ) حاملاً رسالة الى الباشا (سنة ١٨٠٢) يطالبه فيها بدفع التعويضات، ويعلمه برفضه تسديد المبلغ الذي يطالب به وهو (٢٠٠) ألف فرنك. وكان (القبطان بيرج) الذي جمع عندئذ معلومات هامة عن الجزائر، من بين الذين رافقوا هذه البعثة، وهو الذي سيكون من اعضاء الحملة البارزين في سنة (١٨٣٠).

جاء (جيروم نابوليون) الى الجزائر في سنة ١٨٠٥، على رأس قطعة بحرية للمطالبة باطلاق سراح (٢٣١) أسيراً ايطالياً: ولكن الباشا أحمد (الذي خلف مصطفى) لم يطلق سراحهم إلا بعد أن دفع جيروم مبلغ (٨٠) ألف فرنك. ومن جهة اخرى ادت هزيمة الاسطول الافرنسي في معركة (الطرف الأغر) [١] الى أن سحبت الجزائر الامتيازات التي كانت قد منحتها لفرنسا، وأعطتها لانكلترا (وذلك في سنة ١٨٠٧). ولكن نابوليون ما عتم أن وقع (معاهدة تبليست) [٢] مع روسيا، فعاد الى مشروع الحملة ضد الجزائر، وأمر قنصله في

---

(١) الطرف الأغر: (TRAFALGAR.) رأس اسباني الى الشمال الغربي من مضيق جبل طارق. واشتهر بالمعركة التي وقعت قريباً منه في سنة (١٨٠٥) وانتصر فيها الاميرال الانكليزي (نلسون: NELSON) على الاسطول الافرنسي- الاسباني المشترك.

(٢) تبليست: (TILSIT) وهي مدينة روسية تقع في ليتوانيا على نهر (نيمين) وتعرف اليوم باسم (سوميتسك: SOVIETSK) عقدت فيها يوم ٨ تموز- يوليو- ١٨٠٧ معاهدة صداقة بين نابليون بونابرت وقيصر روسيا (الكسندر الأول: ALEXANDRE.I)

الجزائر بمغادرة مدينة الجزائر، وإعلام الباشا بأنه سيواجه الحرب اذا لم يطلق سراح الأسرى الجنويين والكورسيكيين والايطاليين. كما أمر وزيره للبحرية بوضع مخططات الحملة ضد الجزائر سواء كانت برية أو بحرية، والقيام بجمع المعلومات الضرورية عن وسائل التموين وطبيعة الأرض، وتحديد مكان الحملة وزمانها، واقترح التمويه على العدو حتى يظن أن الحملة موجهة الى صقليا. وطلب أن لا يزيد عدد افراد الجيش عن (٢٠) ألف رجل، وأمر أن تأتيه المعلومات في ظرف شهر واحد. وطلب من الوزير إرسال أحد جنوده الذين يمتازون بالروح العسكرية العالية والخبرة الهندسية الى الجزائر بصورة سرية للتجسس وإعداد تقرير مفصل وخطة واضحة، فوقع الاختيار على ضابط يسمى (بوتان). الذي وصل الى مدينة الجزائر في ٢٤ ايار (مايو) ١٨٠٨ م على متن سفينة تحمل اسم (لودكان). وقد ظل هناك متجسساً على الحصون دارساً خطة النزول بدقة، متنقلاً من برج البحري (كاب ماتيفو) الى سيدي فرج. وبعد أن كتب ملاحظاته، ورسم خطته، قفل راجعاً في ١٧ تموز (يوليو) من العام نفسه. غير أن الانكليز ألقوا عليه القبض في عرض البحر وقادوه الى مالطا. واثناء ذلك أعدم الخطة ولكنه أبقى على ملاحظاته التي سيعتمد عليها في اعادة رسم الخطة من جديد وفي كتابة تقريره. وامكن له بعد ذلك الفرار من مالطا متنكراً. وعاد الى فرنسا في تشرين الاول ـ اكتوبر ـ عن طريق ازمير واستانبول. وضمن تقريره معلومات دقيقة عن تحصينات الجزائر وطبيعة أرضها، وعدد قواتها، وزمن الحملة المقترحة والمدة التي تستغرقها، وعدد الجيش الضروري للحملة. واقترح (بوتان) ان يكون عدد الرجال من (٣٥ـ ٤٠) ألف محارب معظمهم من المشاة، مع بعض المدافع، وقد أظهر الاخطار التي تتعرض لها الحملة من

منظر مدينة الجزائر على البحر في القرن السابع عشر

البحر، ونصح بدلاً من ذلك أن تكون الحملة برية، والاستيلاء قبل كل شيء على قلعة (مولاي حسن) المعروفة بقلعة (الامبراطور) لأنها تشرف على المدينة. واقترح بان يتم الانزال في (سيدي فرج) لخلوه من المدافع والجنود. وكان من رأيه بأن أفضل وقت لتنفيذ الحملة هو في الفترة ما بين أيار وحزيران (مايو ويونيو) وألا تتجاوز مدة الحملة الشهر الواحد. ولكن انشغال نابليون في قمع (الثورة الاسبانية) ثم بالحملة على روسيا، وضعف الاسطول الافرنسي، ثم سقوط نابوليون، كل ذلك اعاق تنفيذ الحملة. عينت فرنسا قنصلاً جديداً لها في الجزائر، وهو بيير دوفال، وذلك في ٢٨ آب ـ أغسطس ـ ١٨١٥ وقد حمل الى الباشا هدايا تقدر بمبلغ (١١٢,٩٢٤) فرنك، تضم مجوهرات وساعات وأقمشة وأسلحة. ومقابل ذلك، أعاد الباشا الى فرنسا الامتيازات التي فقدتها، وكان ذلك في ١٧ آذار ـ مارس ـ ١٨١٧ (اثر حملة اللورد اكسموث على الجزائر)[1] وتساهلت الجزائر فخفضت مقدار الضريبة السنوية المقررة على فرنسا من (٣٠٠) ألف فرنك الى (١١٨) ألف فرنك. وكان القنصل الافرنسي الجديد (دوفال) ابناً

---

(١) اكسموث: (SOVIETSK) اميرال انكليزي، من مواليد دوفر (١٨٣٣ـ ١٧٥٧ م) وتولى قيادة القوات العليا البحرية في الهند سنة ١٨٠٣، ثم قاد الاسطول الانكليزي للهجوم على الجزائر وتدمير اسطولها سنة ١٨١٦، وهو الهجوم الذي وصفه الكتاب (المقاومة المسلحة الجزائرية: ١٨٣٠ـ ١٩٢٠) والصادر عن وزارة الدفاع الوطني الجزائرية سنة ١٩٧٤ بما يلي في ص ١٥ـ ١٦: «وصل الاسطول الانكليزي الهولاندي الى الجزائر يوم ٢٧ آب ـ اغسطس ـ ١٨١٦. واشتبك مع الاسطول الجزائري في معركة استمرت احد عشر ساعة وثلاثة وعشرين دقيقة. انتهت باحراق كامل البواخر والسفن التجارية الجزائريه. ووصف قائد الحملة اكسموث لمعركة بما يلي: لم اعرف عدواً في حياتي يقاتل بمثل هذه الضراوة».

لمترجم افرنسي كان يعمل في السفارة الافرنسية في استانبول. وكان من قبل قد تولى جميع مهامه القنصلية الافرنسية بآسيا الصغرى حتى أصبح يتقن اللغتين العربية والتركية، وعلى الرغم من انه قد اصطدم ببعض الصعوبات في بداية عمله في الجزائر، الا انه امكن له تجاوز الصعوبات بفضل ما عرف عنه من اتباعه لاساليب الرشاوي والتوريط وخلف الوعد (فكان شخصاً مشبوهاً). وادت اساليبه المشبوهة الى اثارة غضب الداي الذي عمل على (ضربه بالمروحة - وهي الحادثة المشهورة في التاريخ)[1] والتي ردت عليها فرنسا بارسال قطعة من اسطولها الى الجزائر بقيادة القبطان (كولي). وقد وصلت هذه القطعة التي حملت اسم (لابروفانس) الى مياه الجزائر يوم ١٢ حزيران- يونيو- ١٨٢٧ م حيث طلب قائدها من الباشا القدوم شخصياً الى السفينة للاعتذار للقنصل، ولما كان معروفاً مسبقاً أن الباشا لن يرضى بذلك، فقد تضمنت تعليمات (كولي) على اقتراحات تبادلية وهي:

١- أن يستقبل الباشا القبطان ورئيس اركانه والقنصل بحضور الديوان والقناصل الاجانب ويعتذر امامهم الى القنصل دوفال.

٢- أن يرسل وفداً برئاسة وزير الحربية (وكيل الحرج) الى قطعة الاسطول الافرنسي ليعتذر باسم الباشا الى القنصل.

٣- وفي كل الحالات، رفع العلم الافرنسي على جميع القلاع الجزائرية، بما في ذلك قلعة القصبة، واطلاق مائة طلقة مدفعية تحية له. وكانت تعليمات (كولي) تقضي بانه في حالة قبول الباشا لاحد

---

(١) انظر قراءات - ١ - في آخر الكتاب عن قصة (الدين والمروحة) أو (اليهودي ومروحة دوفال).

المقترحات، فانه يتقدم اليه بعد ذلك بعدة مطالب افرنسية تتضمن دفع التعويضات، ومعاقبة الجزائريين المسؤولين عن الاضرار التي لحقت بالمنشات الافرنسية، وحق تسليح هذه المنشآت في المستقبل، واعلان الجزائر أنه لا حق لها في دين (بكري). كما تتضمن التعليمات أنه في حالة عدم استجابة الباشا لواحد من الاقتراحات المذكورة، فان عليه اعلان الحصار رسمياً على الجزائر.

نفذ (كولي) مهمته. فأرسل الاقتراح الثالث بواسطة قنصل سردينيا في الجزائر (الكونت د. اتيلي) الذي أصبح يرعى المصالح الافرنسية بعد انسحاب (دوفال) وذلك يوم ١٥ حزيران- يونيو- وحدد (كولي) فترة (٢٤) ساعة كمهلة انذارية لتلقي الاجابة. وكان رد (الباشا) على (د. اتيلي) أنه لا يفهم سبب هذا الإجراء، فبدلاً من أن ترسل فرنسا بقنصل جديد، وتكتب اليه مباشرة، لجأت الى ارسال الانذار المضحك مع ضابط بحرية. وعندما انقضى أجل الانذار بدون رد، أعلن (كولي) الحصار في ١٦ حزيران- يونيو- ١٨٢٧. وفي نفس الشهر الذي اعلن فيه الحصار، كلف الجنرال (الوفيردو) بإعداد مشروع (يتضمن المعلومات التاريخية والجغرافية والاحصائية والعسكرية عن الجزائر- تمهيداً لتوجيه حملة ضدها) وأنهى الجنرال عمله خلال ثلاثة أشهر. ولكن الحكومة الافرنسية لم تقرر الحملة على ضوئه، واكتفت بالحصار نظراً لحوادث اليونان، وبسبب فراغ المخازن من الأسلحة، ووجود الاسطول الافرنسي في اليونان. فتراجعت فرنسا عن مطالبها- مرحلياً- . واكتفت بالاصرار على تقديم باشا الجزائر الاعتذار لقنصلها عما ارتكبه نحوه. واثناء ذلك كانت مشاريع إعداد الحملة تنضج على نار هادئة.

فقد تم تكليف الضابط (دوبتي ثوار) بإعداد مشروع لمهاجمة

الجزائر من البحر، ولكن الحكومة الافرنسية لم تأخذ به أيضاً. ثم تولى مشروع آخر وزير الحربية عندئذ (كليرمونت تونير) واعتمد فيه على مشروع (بوتان). ورأى (تونير) أن حملة افرنسية ضد الجزائر هي أمر (ضروري وممكن). ووصف الحملة بانها: «**حرب صليبية هيأتها العناية الالهية لينفذها الملك الافرنسي الذي اختاره الله للثأر من اعداء الدين والانسانية. ولغسل الاهانة التي لحقت بالشرف الافرنسي**). **وأضاف (تونير) مخاطباً الملك- شارل العاشر- بقوله: (لعل الوقت سيجعل من حظنا نحن الافرنسيين تمدين الجزائريين بجعلهم مسيحيين)**. وتضمن تقرير (تونير) اغراءات لاصحاب رأس المال والمراكز الصناعية وذلك بوصف الحالة الاقتصادية للجزائر، وما تحتويه خزانتها في (القصبة) من كنوز متراكمه تزيد على ما قيمته (١٥٠) مليون فرنك. بالاضافة لما يتوافر للجزائر من الموانىء الكثيرة، والسهول الخصيبة، والغابات التي تؤمن الاخشاب لبناء السفن علاوة على مناجم الحديد والرصاص وجبال الملح والمواد الكيميائية الأخرى. وأثار في الوقت ذاته خيالات العسكريين ومطامعهم وذلك بالتوصية لاقامة مستعمرات عسكرية افرنسية في الجزائر. وتضمن المشروع أيضاً طريقة تنفيذ الغزو بهجوم بري، يتم فيه انزال القوات عند جزيرة (سيدي فرج) وذلك في الفترة ما بين (نيسان وحزيران- ابريل ويونيو). وتوقع المشروع أن يتم تنفيذ العملية خلال فترة ستة أسابيع. وحددت تكاليف الحملة بمبلغ (٥٠) مليون فرنك، وتضم (٣٣) ألف رجل بالاضافة الى فرقة من الفرسان- الخيالة- وعدد من فرق المدفعية. واقترح هذا (المشروع) احتلال الجزائر كلها احتلالاً (طويل المدى). واقترح الوزير الافرنسي ان تكون سنة ١٨٢٨ هي الموعد

لتنفيذ الحملة، باعتبار أن اوروبا كانت تعيش فترة من السلم، ولأن الرأي العام الافرنسي كان متهيئاً لها. وقد ناقش مجلس الوزراء (مشروع توفير) في جلسة يوم ١١ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ. ولكن المجلس قرر في النهاية عدم الأخذ به في تلك الفترة.

ظهر بعد ذلك (مشروع جديد) تقدم به أحد نواب البرلمان، تضمن اقامة مستعمرات عسكرية شبيهة بما فعله الرومان، ودعوة الاوروبيين للهجرة الى الجزائر بدلاً من الهجرة الى أمريكا. وقال صاحب هذا المشروع أن احتلال الجزائر سيعوض فرنسا عما فقدته في منطقة الراين، ويغنيها عن شراء بعض البضائع مثل التبغ والحرير والسكر والزيت والقطن. ولكن الحكومة الافرنسية لم تقتنع بالمشروع نظراً لأن حملة الانتخابات كانت على الأبواب، ولأن نتائج الحملة المقترحة ستأتي بعد الانتخابات وبالتالي فانها لن تؤثر في الرأي العام الافرنسي لصالح الحكومة.

وهكذا استمر الحصار على الجزائر، وكان الافرنسيون يهدفون من ورائه الى قطع التموين عن الجزائر، فكان أسطولهم المحاصر يتكون من (١٢) سفينة واجبها مراقبة الموانىء الجزائرية. وإيقاف بعض السفن المشبوهة، واحتجاز بعض السفن الأخرى. ولكن هذا الحصار لم يتمكن من ايقاف اعمال القرصنة، ووقعت مجموعة من الاشتباكات كان من أبرزها معركة يوم ٣ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ حيث انطلقت مجموعة من (١٢) سفينة جزائرية و(٣٢٠٠) مجاهد و(٢٥٢) مدفع واشتبكت مع القوة البحرية الافرنسية في معركة استمرت أربع ساعات تقريباً، ولم تسفر هذه المعركة عن نتيجة ايجابية لأي طرف من الطرفين المتصارعين.

بلغت تكاليف الحصار الافرنسي للجزائر سبعة ملايين فرنكاً في السنة، وظهر احتمال قيام انكلترا واسبانيا بالحرب ضد فرنسا ان هي تحولت عن الحصار فقامت بحملة عسكرية، كما تغيرت الحكومة الافرنسية يوم ٤ كانون الثاني- يناير- ١٨٢٨ م. وتضافرت هذه العوامل فأقنعت الحكومة الافرنسية بمتابعة الجهد الهادىء والمماطلة في الأمر عن طريق فتح باب المفاوضات مع الجزائر لرفع الحصار بطريقة مشرفة. وذهبت بعثة الى الجزائر يوم (٢٩) نيسان- ابريل- ١٨٢٨ م، برئاسة الضابط (بيزار) لاستئناف المفاوضات. غير ان البعثة فشلت في مهمتها بسبب اصرارها على ارغام الباشا بدفع تعويضات لفرنسا. ولكن فرنسا عادت فأرسلت بعثة أخرى برئاسة (بيزار) ذاته، وتكرر الفشل بسبب رفض الباشا لأحد الشروط الافرنسية الاساسية والتي تقضي بارسال وزير من حكومته الى باريس للاعتذار، واشترط الباشا أن يفعل ذلك بعد توقيع معاهدة الصلح مع فرنسا. أما الافرنسيون فقد وضعوا مسؤولية الفشل على عاتق القنصل السرديني في الجزائر والذي كان يرعى المصالح الافرنسية، وزعموا أن (طيبته) و(سلامة نيته) هما سبب هذا الفشل، كما حاولوا الحاق السبب ايضاً الى نشاط القنصل الانكليزي المضاد لفرنسا، ولم ينسو الحاق نسبة من الفشل بالمترجم اليهودي (دوران) الذي اتهموه بعدم نقل الحقيقة.

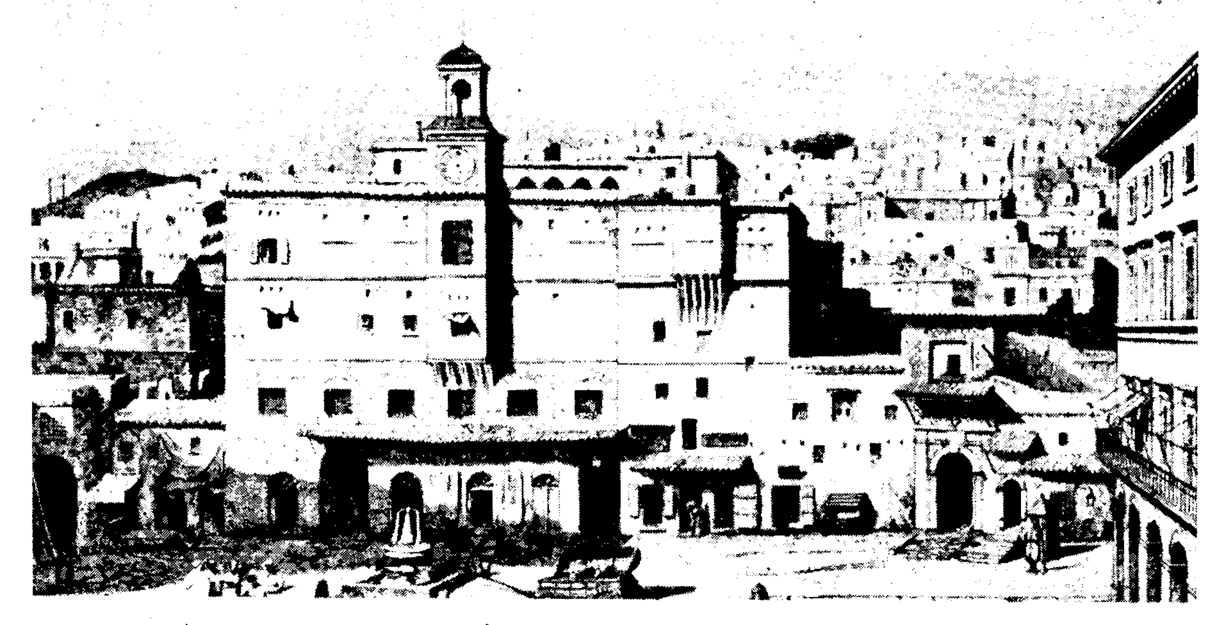
عاد الافرنسيون الى متابعة دراسة (مشروع الحملة ضد الجزائر) بعد أن فشلت المفاوضات. وقام وزير الحربية الجديد (دوكو) بتكليف لجنة خماسية (بدراسة المسائل المتعلقة بحملة ضد الجزائر، وتقديم خطة كاملة للعمل، وتعيين الوسائل الضرورية

للتنفيذ) وكانت هذه اللجنة تضم الجنرال (بيرج) الذي كان قد أرسل سنة (١٨٠٢ م) للتجسس على تحصينات الجزائر، وكان رئيسها هو الجنرال (لوفيردو).

شرعت اللجنة في عملها فور تلقيها الأمر- في صيف سنة ١٨٢٨- وجمعت المعلومات من كتب الرحالة ومعلومات الاسرى الاوروبيين والمذكرات التي كتبت عن الحملات السابقة ضد الجزائر من العام ١٦٢٨ وحتى العام ١٧٥٨. وخلصت الى نتيجة تتوافق مع رأي (بوتان وتونير) اللذين سبقت الاشارة اليهما، سواء فيما يتعلق بتحديد مكان الانزال أو فيما يتعلق بحجم القوى والوسائط، واقترحت اللجنة أن تغادر الحملة ميناء طولون في منتصف شهر نيسان- ابريل- حتى تتمكن من انجاز مهمتها والعودة في نهاية شهر آب- أغسطس- وقدرت تكاليف الحملة بمبلغ (٢٥) مليون فرنك. وتضمن تقرير اللجنة بعض التفاصيل، مثل جدول الهجوم على المراكز الرئيسية (منها قلعة مولاي حسن والقصبة) وتوقعت أن تشتبك القوات الافرنسية مع قوات بايات الجزائر الثلاثة مجتمعة- في معركة حاسمة - بعد عشرين يوماً من بدء الانزال. ولكن ظهور المعارضة القوية في البرلمان الافرنسي لمشروع الحملة، وكذلك الخسارة الاقتصادية التي نجمت عن الحصار، والظروف الدولية التي لا زالت في غير مصلحة فرنسا، كل دلك دفع فرنسا من جديد لسلوك درب المفاوضات، فأرسلت القبطان (دي نيرسيا) في سنة ١٨٢٩ الى الجزائر بمهمة مقابلة (الباشا حسين). وفتح الطريق أمام قائد الحصار الجديد (بريتونيير)- الذي خلف كولي- لتسهيل مهمته. وصدرت التعليمات بأن يصحب قائد الحصار عندما يأتي دوره في المفاوضات، مترجم افرنسي بدلاً من اليهودي (دوران).

وتم الاتفاق على خطة اجتماع الباشا وقائد الحصار بنجاح. غير ان نتيجة الاجتماع كانت سلبية، فقد طلب قائد الحصار من الباشا ارسال وفد على مستوى عال الى باريس للاعتذار والتفاوض. ولكن الباشا استغرب هذا الطلب، وأصر على عقد الصلح في الجزائر أولاً قبل ارسال الوفد الى باريس. وأثناء عودة الوفد الافرنسي خائباً، أطلقت المدافع من التحصينات الجزائرية نيرانها على سفينة قائد الحصار (لابروفانس). وقال الجزائريون أن السفينة اقتربت كثيراً من التحصينات، ولم ينكر الافرنسيون ذلك غير أنهم زعموا بأن شدة الريح هي التي دفعتهم نحو التحصينات الجزائرية.

المهم في الأمر هو أن السفينة لم تصب بأضرار فادحة، ونجح قائدها في إبعادها والعودة بها بسلام. وتبرأ الباشا من هذه الحادثة التي وقعت يوم ٣ آب ـ أغسطس ـ سنة ١٨٢٩، وعبر عن أسفه، وعاقب وزير البحرية وقائد الميناء بالطرد من منصبيهما. واستثمرت فرنسا هذا الحادث لزيادة التوتر في العلاقات الجزائرية ـ الافرنسية. وزاد الأمر سوءاً بتولي (دي بولينياك) رئاسة مجلس الوزراء الافرنسي في نهاية سنة ١٨٢٩ م. وهو الذي عرف بوفرة مشاريعه الاستعمارية لا بالنسبة للجزائر وحدها وانما بالنسبة للشرق كله وحتى لاوروبا. ورافق ذلك ايضاً تغيير وزير البحرية، حيث اسندت هذه الوزارة الى (البارون دو هوسيه) الذي كان من الانصار المتحمسين لفكرة غزو الجزائر في فترة لا تتجاوز ربيع سنة (١٨٣٠ م). وكان (بولينياك) قد استقبل في ايلول ـ سبتمبر ـ عام ١٨٢٩ ـ عندما كان وزيراً للخارجية قبل أن يصبح رئيساً للوزراء، وفداً من مصر يضم القنصل الافرنسي في الاسكندرية والمغامر الافرنسي المركيز (دو ليفرون) الذي أصبح ممثلاً لمصالح محمد علي في فرنسا، وذلك لعرض مقترحات



قصر «الجنينة» مقر الإدارة المركزية العثمانية قبل أن يحرقه الفرنسيون

عرفت فيما بعد باسم (مشروع محمد علي) لحل قضية الجزائر). ويتضمن هذا المشروع قيام فرنسا بدعم محمد علي ليصبح حاكماً على طرابلس وتونس والجزائر، وأن يتم ذلك بتوجيه الجيوش المصرية على امتداد الطريق الساحلي المتاخم لدول المغرب العربي الاسلامي، في حين تقوم قطع الاسطول البحري الافرنسي بدعم هذا التحرك وحمايته. واقترح- محمد علي- لتنفيذ ذلك أن تمده فرنسا مسبقاً بأربع قطع بحرية (سفن) و(٢٨) مليون فرنك. وكان يرى أن السلطان العثماني لن يعارض هذا المشروع، الذي يحقق لفرنسا في الوقت ذاته مصالحها (التخلص من مشكلة الجزائر) وسيرضي اوروبا (بتنفيذ رغبتها في إيقاف أعمال القرصنة). وقال محمد علي للقنصل الافرنسي في القاهرة، انه قادر على إنهاء (المشكلة الجزائرية) بتجنيد (٦٨) ألف رجل و(٢٣) سفينة. وتوفير (١٠٠) مليون فرنك لتغطية نفقات الحملة. واقتنع (بولينياك) بما اطلق عليه اسم (مشروع محمد علي) وهو في حقيقته مشروع افرنسي، لا سيما وان (بولينياك) كان يرى منذ سنة(١٨١٤ م) بضرورة الربط بين قضية مصر وقضية المغرب العربي- الاسلامي. حتى انه تحادث مع زملائه عندما كان سفيراً لبلاده في لندن (سنة ١٨٢٨) عن فوائد فرنسا وفوائد اوروبا ايضاً من قيام حملة ضد الجزائر.

وحين وصل الى الحكم بدأ في البحث عن الوسيلة التي يمكن استخدامها لتنفيذ هدفه. في تلك المرحلة التي لم تكن فيها فرنسا بعد مستعدة لتنفيذ الحملة وحدها وبطريقة مباشرة، لذلك تبنى مقترحات (محمد علي) وأرسل الضابط (هودير) الى مصر للتفاوض. كما أرسل تعليماته الى سفير فرنسا في استانبول لمعرفة

رأي السلطان في المشروع. ويقال أن التعليمات قد تضمنت اقناع السلطان بأن الحملة التي يمكن لمحمد علي القيام بها ستحقق للسلطان:

١ـ جزية هامة من الولايات الثلاث المتمردة عليه (تونس والجزائر والمغرب ـ مراكش).

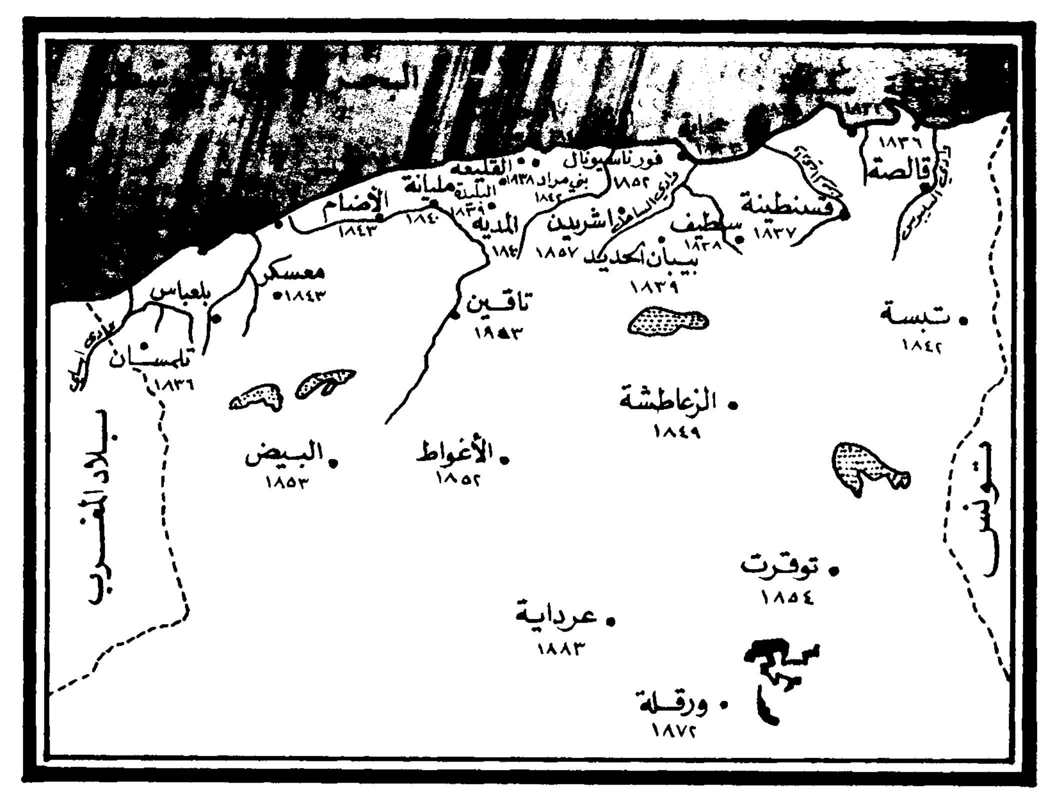
٢ـ عدم ارسال الجنود الافرنسيين الى الجزائر.

وتذكر بعض المصادر أن الديوان العثماني (مجلس الوزراء) لم يعارض المشروع في البداية، غير أنه لم يلبث أن تحول عن موقفه، وحاول العثمانيون إقناع السفير الافرنسي بان تأييد هذا المخطط (يخالف الدين الاسلامي) وأن محمد علي لن يقدر على تنفيذ هذا المخطط. وبدلاً من التأييد الذي كان يريده الافرنسيون، وافق الديوان على إرسال شخصية هامة للتعرف على موقف باشا الجزائر، والتوسط في ايجاد حل سلمي بين الجزائر وفرنسا. وكان (السيد خليل افندي) هو الشخصية التي وقع عليها الاختيار للقيام بالوساطة نظراً للصداقة التي تربطه بالوالي (باشا الجزائر) ونظراً لما عرف عنه من كفاءة ديبلوماسية عالية. وقد وصل (خليل افندي) الى الجزائر في شهر كانون الأول ـ ديسمبر (١٨٢٨). ولكن خليل افندي فشل في مهمته بسبب عناد فرنسا وتصميمها على إعادة حق صيد المرجان وإقامة منشآت مسلحة وغيرها من الشروط التعجيزية. هذا من جهة، ومن جهة اخرى فقد اصطدم المشروع عندما عرض على مجلس الوزراء الافرنسي بمعارضة وزير البحرية (دي بورمون) ووزير البحرية (دي هوسي) حيث اعتبر مشروع التعاون مع محمد علي إهانة للشرف الافرنسي، إذ كان حاكم مصر في نظرهما لا

يختلف عن حاكم الجزائر (حسين باشا): كلاهما (بربري- مسلم) وهدد (هوسي) بالاستقالة إذا منحت فرنسا الأربع سفن إلى محمد علي. ولذلك اضطر (بولينياك) الى تعديل المشروع بتخفيض المعونة، وتقديم السفن كإعارة فقط. واشترط أن تشترك فرنسا في الحملة باسطول ضخم يحمي جيش محمد علي من البحر، مع الاشتراك ايضاً بقوة برية ضخمة من الجنود والمهندسين للمشاركة في أعمال الحصار والهجوم. وفي ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٢٩ وافق الملك الافرنسي (شارل العاشر) على المشروع المعدل. فأرسل (بولينياك) على الفور بعثة الى محمد علي لحقت (بهودير) الذي كان لا يزال في (طولون) ينتظر سفينة تحمله الى مصر. وقد وصل الى الاسكندرية في ١٦ تشرين الثاني- نوفمبر- غير أن مجلس الوزراء الافرنسي قرر خلال جلسة عقدها يوم ١٩ كانون الأول - ديسمبر- ١٨٢٩، أن تقوم فرنسا وحدها بالحملة ضد الجزائر. وفي اليوم التالي وافق الملك مبدئياً على قرار مجلس وزرائه، وعاد (هودير) في هذا اليوم ذاته وهو يحمل رفض (محمد علي) للمشروع المعدل. ومع ذلك لم ييأس (بولينياك) من التعاون مع محمد علي فاقترح في جلسة مجلس الوزراء الافرنسي يوم ٣ كانون الثاني- يناير- سنة (١٨٣٠ م) إجراء تعديل جديد على المشروع، وتقرر دفع (٢٠) مليوناً- كما اشترطها محمد علي، يتم دفع نصفها عند تحرك الجيش المصري، ونصفها الباقي بعضه عند الوصول الى طرابلس، وبعضه الآخر عند الوصول الى تونس. وتقرر ايضاً دفع مبلغ (٨) مليون فرنك كتعويض على (محمد علي) مقابل السفن الأربع التيّ رفضت فرنسا اعطاءها أو اعارتها. وقرر مجلس الوزراء الافرنسي ايضاً إرسال الاسطول الافرنسي لحماية

الحملة ومرافقتها ابتداء من الاسكندرية . وحمل (هودير) المقترحات الجديدة- المعدلة - الى محمد علي، ووصل الى الاسكندرية في ٢٠ كانون الثاني- يناير- ووافق محمد علي على المشروع المعدل. غير أن حملة اعلامية- صحافية- واسعة ثارت في وجه الحكومة، وارغمتها على تعديل موقفها. فقد وصفت بعض الصحف مشروع (محمد علي- بولينياك) بانه مشروع غير عملي (غير ممكن- فظيع- غير مجد لفرنسا لانها تستخدم مسلماً ضد مسلم) كما اعترضت روسيا وانكلترا على المشروع.

وهكذا أرسلت الحكومة الافرنسية رسولاً آخر الى (محمد علي) في ٦ شباط - فبراير- عام(١٨٣٠ م) يعرض عليه ثمانية ملايين فرنك اذا اكتفى بطرابلس وتونس، أما الجزائر فقد رأت أن تتولاها فرنسا بنفسها. عندها يئس (محمد علي) وقطع المفاوضات مع الافرنسيين قائلاً: **(انهم لن يصلوا أبداً الى الجزائر، واذا وصلوا فلن يجرؤوا على البقاء فيها لمعارضة بريطانيا لهم؟)**.



تواريخ احتلال فرنسا لمختلف مدن الجزائر

٢ـ عشية ليل الاستعمار

اجتمع مجلس الوزراء الافرنسي يوم ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٨٣٠ وقرر بعد دراسة استمرت أربع ساعات القيام بحملة ضد الجزائر، وأقر الملك (شارل العاشر) [١] مشروع الحملة يوم (٧) شباط ـ فبراير ـ وأصدر مرسوماً ملكياً بتعيين (الكونت دي

---

(١) شارل العاشر: (CHALES - X) ولد في فرساي (١٧٥٧ـ ١٨٣٦ م) حفيد لويس الخامس عشر وشقيق لويس السادس عشر ولويس الثامن عشر والذي خلفه على العرش سنة (١٨٢٤ م) وقد اشتهر بخفته (رعونته) وبمزاجه المتقلب وطباعه الخاصه. وما ان اصبح ملكاً حتى أصدر قانون العقوبات لحماية المقدسات، والتعويض على النازحين الذين شردتهم الثورة الافرنسية، والقوانين ضد حرية الصحافة. وقد أثار الجزويت (البروتستانت الافرنسيين) والمجمعات الرهبانية النقمة ضده مما حرمه من محبة الشعب وتأييده، وبصورة خاصة في عهد وزيره (فيليت: VILLETE) وهي النقمة التي لم ينقص منها انتصار (نافاران) ضد المسلمين، ولا استبدال رئيس الوزراء فيليت برئيس الوزراء (مارتينياك: MARTIGNAC) سنة ١٨٢٨ وقد رفض مجلس النواب منح الثقة لرئيس الوزراء الجديد (بولينياك: POLIGNAC) فتم حل المجلس النيابي واجربت انتخابات جديدة جاءت نتائجها لمصلحة المعارضة. وتم حل الحكومة في ١٥ تموز ـ يوليو ـ ١٨٣٠ م. واسقاط شارل العاشر حيث حل محله لويس فيليب (في فترة احتلال الجزائر).

بورمون)[1] قائداً عاماً للحملة والأميرال (دوبيري) قائداً للأسطول.

وفي يوم (١٢) آذار ـ مارس ـ ١٨٣٠ م، اخطرت الحكومة الافرنسية السفراء الاجانب المعتمدين في باريس ـ بمذكرة رسمية ـ عزمها على توجيه حملة عسكرية ضد الجزائر، وذلك لحل الأزمة المتفاقمة والتي وصلت ذروتها بالحصار المفروض على الجزائر منذ يوم ١٦ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٢٧ م. وكان العرش الافرنسي في حاجة لانتصار عسكري يحمل هدفاً كبيراً هو (الانتقام للمسيحية) أما الذريعة فكانت موجودة (بضربة مروحة الداي).

وفي يوم (١٤) حزيران- يونيو- تمكنت الحملة التي يقودها (دي بورمون) من انزال قواتها في سيدي فريج. وكانت هذه الحملة مكونة من:

(٣٥) ألف جندي مشاة.

(٢٤) ألف بحار.

(٤٥١٢) حصان.

(٦٧٥) قطعة بحرية منها (١٠٣) قطع حربية ضخمة.

وبالمقابل كان جيش الجزائر يضم (٥٠) ألف مقاتل. غير ان هذا الرقم لا يمثل القوة الحقيقية التي حشدت لمجابهة الغزو

---

(١) الكونت لويس دي بورمون: COMTE LOUIS DE BOURMONT جنرال افرنسي، برز أيام امبراطورية نابليون بونابرت، وهو من مواليد (مين ولوار)(١٧٧٣ ـ ١٨٤٦م) تخلى عن نابليون الذي كان يعتمد عليه في معركة ليني (LIGNY) سنة ١٨١٥، وباع الاسرار التي اطلعه عليها نابليون الى الانكليز مما ساعدهم على الانتصار في واترلو، وانضم (دي بورمون) الى لويس الثامن عشر بعد أن قبض مبلغاً كبيراً من المال لقاء خيانته (لنابليون) وأصبح (ماريشال فرنسا) بسبب دعمه للملكية. وتولى قيادة الحملة ضد الجزائر.

الافرنسي للاسباب التالية: ١ـ أن القدرة الحقيقية هي أكبر من هذا الرقم غير أن اخطاء حشد القوات أدت الى زج قوات أصغر بكثير. ٢ـ أنه لم تستخدم هذه القوات في معركة واحده فاستطاعت القوات الافرنسية المجمعة تدمير القوات الجزائرية على التتابع. ٣ـ ان ادارة الحرب في الطرفين لم تكن متكافئة مما اضعف من القدرة القتالية للقوات الجزائرية. وهو ما تبرزه مسيرة الاحداث على مسرح العمليات(١).

كان حاكم الجزائر (الوالي حسين باشا) يتابع تفاصيل الحملة قبل وقوعها. ولكن يظهر أنه لم يكن على علم بمكان نزولها. فقد كان يعتقد أنها لن تتعدى الضرب من البحر، شأنها شأن الحملات الاوروبية السابقة.

---

(١) جاء في كتاب ؛ LARESISTANCE ARMEE ALGERIENNE - 1830 - 1920) والصادر عن وزارة الدفاع الوطني ـ الجزائر ـ ١٩٧٤ ص ١٧ ـ بان قوة جيش الجزائر هي (٥٠) ألف. في حين جاء في (تاريخ الجزائر ـ الاستاذ مجاهد مسعود ـ الجزء الأول ص ١١٤) ما يلي: (وارسل الداي الى عماله في المدائن والضواحي يدعوهم الى الجهاد الاكبر، ويستفز حماستهم للدفاع عن بلادهم واوطانهم... فوعدوا بارسال جميع الرجال القادرين على حمل السلاح، ووضعهم تحت امرته، حتى فاق عدد الجنود التي وعدوا بها الباشا (٢٠٠) ألف رجل لم يصل منهم إلا القليل. أما تاريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتلال ـ الدكتور ابو القاسم سعد الله ـ القاهرة ١٩٧٠ ـ فيذكر في ص ٣٢ ـ ٣٥ ـ تفصيل هذه القوات بالتالي: «لم يكن جند الانكشارية ـ في الجيش النظامي يزيد على (٦) الاف، اما ولاة الاقاليم، فقد وعد الحاج احمد باي قسنطينة بزج (٣٠) ألف محارب، ووعد حسن باي وهران بتقديم (٦) آلاف محارب. ووعد مصطفى بومزراق باي التيطري بتقديم (٢٠) ألف محارب. وجمع شيوخ جرجرة بين (١٦ و١٨) ألف محارب) وجمع أهالي مزاب (٤) آلاف محارب. غير ان معظم هذه القوات لم تصل، وعلى سبيل المثال، فان باي ـطري حين وصل الى الميدان لم يأت معه أكثر من الف رجل «وكان قد وعد بزج (٢٠) ألف منهم (١٠) آلاف برماحهم».

وما دام قد حصن الواجهة البحرية، فانه لا خوف من عواقب الحملة. ومن جهة اخرى، كان لا يزال على الاعتقاد بأن الافرنسيين لن يتخلوا عن فكرة التفاوض، على الرغم من استعداداتهم للحملة، وكان يساعده على اعتقاده هذا كثرة الرسل والبعثات التي جاءت طالبة التفاوض منذ اعلان الحصار. وكان الباشا يعتمد أيضاً على مساعدات بريطانيا، التي كان قنصلها، بالاضافة الى قنصل نابولي، يقوم بنشاط ملحوظ منذ عام ١٨٢٧ م وكانت مصالح بريطانيا تقتضي استمرار الادارة الحالية في الجزائر، على نحو ما كانت تقتضيه مصالحها في المشرق. وحين كتب محمد علي ناصحاً الباشا، رد عليه (بأن يبيع الفول للمسيحيين بدل اعطائه النصائح بدون جدوى). وكان حسين باشا قد بعث برسله للتجسس على اخبار الافرنسيين في ايطاليا واسبانيا ومرسيليا وطولون وباريس وجبل طارق ومالطا. وحين جاءته هذه الرسل تنذره بأن فرنسا تستعد للقيام بحملة ضده، اعتقد أن ذلك لن يتعدى غارة بحرية ستفشل لا محالة. وعين والي الجزائر (حسين باشا) صهره (الآغا ابراهيم) لقيادة جيش الجزائر، منذ ضرب السفينة الافرنسية لابروفانس في ٣ آب- اغسطس- ١٨٢٩ م، وسلمت له عندئذ خطة الافرنسيين للهجوم على الجزائر ومكان انزال قواتهم وعدد جنودهم ومدافعهم. ومع ذلك لم يستعد لأي شيء وكان يدعي أن قبائل الجزائريين سترغم الافرنسيين على الفرار منذ نزولهم الى البر. ولكنه لم يصدر تعليماته أو أوامره لهؤلاء المقاتلين الجزائريين أن يأتوا من بواديهم لمواجهة العدوان. فكان كل جيشه مكوناً من أهالي سهل متيجة الذين لا يعرفون سوى بيع الحليب. وكان ابراهيم يدعى أن لديه (٥) آلاف لص سيطلقهم ليلاً للهجوم على معسكر العدو، واشاعة

الفوضى والاضطراب حتى يقتل الافرنسيون بعضهم بعضاً. ولم يكتف (الآغا ابراهيم) بعدم القيام بأية استعدادات لمجابهة احتمالات العدوان، وانما وقف لمعارضة اقتراحات زملائه (أمثال الحاج أحمد باي قسنطينة) والتي تقضي بالاعتماد على (استنزاف قدرات العدو) والاشتباك معه بمعارك صغرى (كمائن واغارات) وهــو النوع الذي يتقن الجزائريون استخدامه بسبب سرعتهم وخفة حركتهم ومعرفتهم الجيدة للأرض. وقرر (ابراهيم) في مخطط دفاعه على صدم قوات العدو بمعركة تصادمية في المواجهة، وكان ابراهيم يقول: (انه الوحيد الذي كان يعرف مناورات العدو الحربية وطرائقه التعبوية- التكتيكية). وفي مرحلة الإعداد للمعركة، اعطى (ابراهيم) كل جندي عشر رصاصات فقط. وكانت هذه الرصاصات في نظره (كافية للاطاحة بنصف الجيش الافرنسي، وبعد ذلك لن تكون هناك حاجة لتوزيع البارود).

عندما كان (الآغا ابراهيم) يجابه الموقف بمثل هذه الاستعدادات البدائية، وعندما كان الداي (حسين باشا) يعتمد على تقديراته المتفائلة - اكثر من اللازم، كان العالم كله يعرف أن حملة فرنسا قد باتت وشيكة (حتى ان القناصل المعتمدين في الجزائر اتخذوا كل التدابير الضرورية لحماية انفسهم وممتلكاتهم من اعمال الفوضى والنهب التي قد يقوم بها الانكشارية وقطاع الطرق من الجزائريين والانتقال الى مركب القيادة الافرنسية عند بدء العدوان[1]. غير أن اعمال النهب والفوضى جاءت من قبل جنود

---

(١) تضمن تقرير لاحد القناصل نشر في: (REVUE D'HISTOIRE ET DE CIVILISATION DU MAGHREB . FACULTE DES LETTRES D'ALGEIR. JANVIER 1968 NO 4 P.P. 35 - 49. بأن قيادة الحملة قد سمحت لعدد من =

جيش الغزو، كما ان القيادة الافرنسية لم تسمح للقناصل بمرافقة الحمله بسبب صعوبات كثيرة على ما زعمته قيادة الحملة. المهم في الأمر هو أن هذه الحملة وصلت الى الجزائر على موجات متتالية، تكونت الموجة الاولى من مائتي قطعة بحرية وصلت الى مياه الجزائر منذ ١٣ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٣٠ والقت مراسيها في ميناء (سيدي فرج). وقامت السفن بانزال القوات فوراً واستولت على رأس (سيدي فرج) وعلى قلعة صغيرة غير بعيده عن الرأس المذكور، واستمر الانزال بعد ذلك دونما توقف وبدون مقاومة تقريباً. وجاءت بعد ذلك الموجة الثانية وهي مكونة من (١١٠) قطع بحرية من أنواع مختلفة واحجام متباينة، القت مراسيها يوم ١٦ حزيران ـ يونيوـ، وقامت بانزال كل ما تحمله من الجنود والمواد التموينية والذخائر الحربية، وعادت بعد ذلك الى فرنسا حتى تنقل حمولات جديدة.

وصلت بعد ذلك قطع حربية بحرية من كل الانواع، وهي تغدو جيئة وذهاباً بين طولون والجزائر لتنقل كل يوم المزيد من القوات مع تأمين متطلبات القوات التي بلغ عدد افرادها (٣٥ ألف مقاتل) منهم (٢٥) ألفاً من المشاة و(٥) آلاف من رجال المدفعية والمهندسين و(١٥٠٠) فارس مع خيولهم و(٣٥٠٠) من القناصة

= الضباط الاجانب المعتمدين بمرافقة الحملة، وذلك بصفة مراقبين فقط. وهم: ١ـ عن انكلترا: العقيد مونتي (MONTHE) قائد سفينة مانسل. ٢ـ عن النمسا: الامير فريدريك شوارتز نبرغ. ٣ـ عن اسبانيا: قائد الكتيبة جوكين فيللا لونغا، والرائد مانويل سوريا، والعقيد جوزيه غيرورو دو تور، وانتوان لازانكا، والنقيب كونت ميرازول (الذي وصل بعد الاستيلاء على الجزائر). ٤ـ عن بروسيا: النقيب كلارك. ٥ـ عن روسيا: العقيد فليزولف والملازم دوبينسكي (عن تقارير سويدية وثائقية في موضوع الاستيلاء على الجزائر سنة ١٨٣٠ م).

والجوالة ـ عناصر الاستطلاع ـ وقوات الدرك ووحدات اخرى خفيفة.

وأقام القائد الافرنسي (بورمون) مقر قيادته في زاوية المرابط (سيدي فرج) حيث كانت الزاوية تشرف على الخليج بكامله. وكانت تضم مسجداً صغيراً يحيط به جدار، وبه بعض الغرف. وحول الزاوية كانت مزارع الشعير والحنطة وأشجار التين والبرتقال والزيتون. وبداخل المسجد كان هناك صندوق ذخائر سيدي فرج الذي كان مرصعاً بالفضة والمرجان. فاختار (بورمون) المسجد لاقامته ونومه، وانتشر القادة في الانحاء الاخرى وقد اختار كل واحد المكان المناسب لاقامته.

بقيت القوات الافرنسية في مراكزها حتى يوم ١٩ حزيران ـ يونيو ـ دونما أي محاولة للتحرك، حتى تقنع الجزائريين بضعف القوة الافرنسية وتغريهم بمهاجمتها جبهياً. وفي الوقت ذاته للافادة من هذا الوقت من أجل ضم القوات الجديدة التي تصلهم من فرنسا، واثناء ذلك قام الجنود الافرنسيون بحفر الخنادق المتتالية لحماية معسكرهم، واختاروا لمدفعيتهم المرابض المناسبة.

عرف (حسين باشا) بخطورة الموقف عندما نزل الجيش الافرنسي فعلاً في سيدي فرج، فتحرك بسرعة، وطلب الى ولاة الاقاليم الثلاثة (قسنطينة ووهران وتيطري) ارسال الدعم، كما أرسل الى داخل البلاد المراسيل يدعون الناس للجهاد، فاستجاب لندائه الرسميون والأهالي على السواء.

وأرسل ايضاً الى باي وهران يأمره بتحصين الميناء، كما أرسل الى باي قسنطينة يأمره بتحصين ميناء عنابة، وأمر الباشا بإجراء إحصاء لعمال مدينة الجزائر وارسالهم الى القلاع للدفاع عنها.

ورغم هذه الاستعدادات الظاهرية، والتي لم تكن كافية بقدر ما كانت متأخرة، فقد كشف الواقع عن بعض الاخطاء. فبدلاً من أن يستعمل (الداي حسين باشا) هذه القوات لصد الهجوم الافرنسي من سيدي فرج، فانه احتفظ بها على مسافة عدة كيلومترات بعيداً عن العاصمة. وحين عبر له بعض الاجانب عن استغرابه لهذا الإجراء، أجابه حسين: (بأنه فعل ذلك ليسهل تحطيم العدو). وكان حسين ينظر بثقة الى جنوده وتحصيناته، وكان يعتقد بأن القصبة لا تهزم وأنها تستطيع أن تقاوم عدة سنوات. ولم يدعم معسكراته سوى ببعض مئات من الجنود. ثم جمع (الداي حسين باشا) ديوانه العسكري. واستشار رجاله في الأمر، فقر رأيهم على أن يتركوا الافرنسيين وشأنهم في سيدي فرج حتى يكملوا انزال قواتهم واعتدتهم ووسائطهم القتالية، ثم ينقضوا عليهم بجموعهم- ما هو موجود الآن وما هو قادم من الداخل، فيقذفون بالافرنسيين في البحر، فيتخلصوا بذلك منهم، ويغنموا اموالهم وذخائرهم، كما وقع مثل ذلك من قبل مع الاسبانيين (حملة شارلكان). وعندئذ تقرر اقامة معسكرين لحشد القوات في (مصطفى والي) و(اسطاوالي) وهما يبعدان (٥) كيلومترات عن جنوبي شبه جزيرة (سيدي فرج). وأقام قائد الجيش (ابراهيم آغا) في (اسطاوالي) ولكنه لم يحاول تنظيم القوات التي وردت اليه من سكان سهل متيجة وأهالي جرجرة. وكانت القوات تذهب كل يوم الى معسكر الحراش الذي يبعد مسافة أربع ساعات من (اسطاوالي) وتعود كل صباح. وقد رفض (ابراهيم) مقترحات باي (قسنطينة) التي تقضي بتوزيع القوات الجزائرية- العثمانية، وجعل جزء منها غرب (سيدي فرج) لحماية العاصمة ومنع العدو من الوصول اليها. وانتقد (الباي أحمد)

خطة (ابراهيم) وقال: (بأن وضع القوات على ما هي عليه سيكون- مرشداً للقوات الافرنسية في زحفها نحو العاصمة. وطالب بالعناية بالجيش، وأن يأخذ كل قائدمجموعة منه ويعدها اعداداً كافياً). كما طالب (الباي أحمد) بحفر الخنادق حول المعسكر. ولكن رد (الآغا ابراهيم) كان سلبياً ومثبطاً. فقد أجاب الباي بأنه: (يجهل التكتيك الحربي الاوروبي الذي يخالف التكتيك الحربي العربي). فلم يبق امام (الباي أحمد) سوى الصمت. وفي آخر لحظة، اقتنع (الآغا ابراهيم) بضرورة حفر الخندق الذي كان يرى (انه سيكون معطلاً لجيشه لا لجيش العدو) وقد أذاع الجيش: (بأن كل عربي بدون سلاح يستطيع الحضور الى المعسكر لأخذه) وعندما حضروا للمعسكر ليلاً اعطاهم الفؤوس بدلاً من الاسلحة وأمرهم بحفر الخندق، فتم تنفيذ ذلك في ليلة واحدة. ولكن الخندق لم يكن مفيداً، إذ أنه لم يؤمن حماية المقاتلين الجزائريين ولم يؤخر تقدم العدو.

حدثت خلال هذه الفترة بعض الاحداث الصغرى التي تجدر الاشارة اليها، نظراً لانها تعتبر بمثابة المؤشرات للحالة الخاصة والعامة أثناء عملية الغزو. ومن ذلك إقدام بعض الجزائريين على مهاجمة الجنود الاتراك في الليل ثم الهرب. وعندما اشتكى الجنود الى الباشا، نصحهم (بغض النظر) وعدم تضخيم الأمر. وحاول (حسين باشا) على اثر ذلك التقرب من الاهالي، فأمر باعدام سبعة من جند الانكشارية بسبب اعتداءاتهم على الجزائريين، واخذ يحقد على جنوده الاتراك، وازداد اعتماده على الجزائريين. ومن ذلك أيضاً، رفض (الآغا ابراهيم) معاقبة جندي انكشاري لانه قتل جزائرياً لكي يبيع رأسه في المدينة على انه رأس جندي افرنسي. وقد

اثار هذا الحادث حفيظة الجنود الجزائريين الذين كانوا في جيشه. **ومن ذلك أيضاً** ما حدث اثناء هذه الساعات الحرجة، عندما ذهب جزائري (يدعى أحمد بن شنعان) إلى المعسكر الافرنسي للتعرف على ما اذا كان الفرنسيون قد جاءووا مستعمرين أو محررين. وبعد قضاء ليلة واحدة، تركوه يعود من حيث أتى بعد أن زودوه بنسخ كثيرة من البيان الذي اعدوه ووجهوه الى الجزائريين وأهالي المغرب العربي عامة. (انظر نص هذا البيان في قراءات ـ ٢ـ آخر الكتاب).
وفي هذا الوقت ذاته توجه مترجم سوري كان في الجيش الافرنسي، الى المعسكر الجزائري محاولاً اقناع القيادة بالتفاوض مع الافرنسيين، ولكنه حمل من هناك إلى (حسين باشا) الذي أمر بقتله بعد أن ظن أنه يحاول التأثير عليه بوصفه للقوات الافرنسية بالكثرة والضخامة. **ومن ذلك**، قيام بعض الجزائريين بإجراء اتصالات مع الافرنسيين، والتظاهر بصداقة فرنسا، واعطاء تقارير خاطئة عن حالة البلاد وحالة الجيش. **ومن ذلك ايضاً** ما ذكر من ان (ابراهيم باشا) قد تسلم من الباشا حسين مبالغ من المال لتوزيعها على المجاهدين لتشجيعهم، ولكنه لم يعط أحداً منهم شيئاً. وكان (الباشا حسين) قد وعد الجزائريين بدفع مبلغ (٥٠٠) فرنك لكل من يحمل له رأساً للعدو. وكلف (الآغا ابراهيم) بدفع المبلغ في مكانه مقابل وصل استلام. غير أن (الآغا) لم يدفع شيئاً. وكان يقول لمن يأتيه برأس العدو: (تعال خذ المبلغ بعد المعركة). **وذكر كذلك**: (ان الآغا ابراهيم) ترك معسكره دون حراسة قوية (بحيث كان يستطيع كل انسان دخوله والخروج منه بدون أن يعترضه معترض). **وعندما تقرر مهاجمة المعسكر الافرنسي**: «خرج ابراهيم وحاشيته من المعسكر الى سيدي فرج تاركاً المعسكر خالياً إلا من حوالي (٤٠) شخصاً

لحراسة الاثاث، ولكنهم كانوا بدون سلاح». **وهكذا- وكما وصف أحد مسؤولي الجزائر- الحاج حمدان خوجة- الموقف بقوله: «لقد ذهب الآغا ابراهيم لمحاربة الافرنسيين، بدون جيش منظم، وبدون ذخيرة، وبدون مؤونة، وبدون شعير للخيل، وبدون المقدرة الضرورية على مواجهة الحرب»[1]. فكانت «غلطة، من الوالي حسين باشا، لا تغتفر. لانه عين الآغا ابراهيم لممارسة قيادة هو غير كفء لها في وقت هو من اخطر ما جابهته الجزائر».**

مضى اسبوع تقريباً على انزال القوات الافرنسية في المنطقة المحصنة طبيعياً حيث كانت المرتفعات الأرضية تحمي ميمنتهم وقلبهم. وفي مساء ١٨ حزيران- يونيو- اقام والي الجزائر (حسين باشا) مأدبة عشاء اشبه ما تكون (بمؤتمر حرب) حضرها: (باي قسنطينة وخليفة باي وهران، وباي تيطري، وخوجة الخيل وقائد الجيش الآغا ابراهيم) وتقرر مهاجمة المعسكر في صبيحة اليوم التالي.

بدأت المعركة الحاسمة مع بزوغ الشمس ليوم ١٩ حزيران- يونيو- والتقت القوتان في معركة جبهية أظهر فيها العرب والترك شجاعة نادرة وكفاءة عالية مما أوقع القوات الافرنسية في مأزق حقيقي ووصل المجاهدون الى تحصينات الافرنسيين، ورفعوا علم الجزائر فوقها. ولاحت بواكير النصر لمصلحة المسلمين غير أن القوات الافرنسية تلقت دعماً قوياً تعززه المدفعية في اللحظة الحرجة وتحول الموقف بسرعة. فأخذت (جيوش الباشا) بالتراجع والانسحاب، وهو التراجع الذي لم يلبث أن تحول الى (هزيمة)

---

(١) المرجع: تاريخ الجزائر الحديث- الدكتور أبو القاسم سعدالله- ص ٣٢- ٣٧.

بسبب الضغط المتعاظم للقوات الافرنسية التي افادت من تفوقها فانطلقت كالسيل مجتاحة في طريقها معسكر (مصطفى والي) الذي تركه المقاتلون وهم يفرون في كل اتجاه ليقع جميعه غنيمة باردة في قبضة الافرنسيين. وهرب (الآغا ابراهيم) من الميدان مخلفاً وراءه جيشه وخيامه وأعلامه والفرقة الموسيقية. واختفى في دار ريفية مع بعض خدمه. وبدل أن يعزله (حسين باشا) فوراً ويعين قائداً تتوافر له الكفاءة والقدرة لاعادة الروح المعنوية المنهارة، ومواجهة قوات العدو، أرسل إلى صهره (حمدان خوجة) الذي كان موضع ثقته ليحاول اقناعه بضرورة استلام القيادة من جديد،وقد وجده (خوجة) في حالة انهيار تام، فلم يتمكن من اقناعه لمتابعة تنفيذ مهمته الا بعد جهد كبير. غير أن (الآغا ابراهيم) لم يتمكن من تنفيذ واجباته، فعندما تقدم الجيش الافرنسي من (اسطا والي) ماراً (بسيدي خلف) اختفى ابراهيم من جديد.

وأمام ذلك، عزله (حسين باشا) ودعا المفتي (محمد العنابي) وأعطاه سيفاً وأمره بجمع الشعب واقناع الناس بالجهاد دفاعاً عن البلاد. وكان المفتي رجلاً فاضلاً ولكنه كان صالحاً للافتاء لا للقيادة. هذا من جهة، ومن جهة اخرى فقط أحاط الناس- رجال الحضر- بالمفتي، وحاولوا اقناعه بعقـم محاولات الدفاع عن موقف بات الأمل ضعيفاً في انقاذه. لا سيما وان قوات الافرنسيين قد اخذت في الاقتراب من (قلعة مولاي حسن- المعروفة باسم قلعة الامبراطور) مما زاد الموقف اضطراباً وجعل الأمل بنجاح المقاومة أكثر بعداً. أما قيادة الجيش فقد تولاها (الباي مصطفى بو مزراق). ولكن تغيير القيادة لم يعد مجدياً أو مثمراً، هذا على الرغم مما تميز

به القائد الجديد من الخبرة القتالية والشجاعة. فكان كل ما عمله هو جمع الغنائم واختيار البنادق الطويلة لاطلاق الرصاص بنفسه على الافرنسيين. وتحصين البساتين حول مدينة الجزائر. وفي هذا الوقت كانت القوات الافرنسية قد توقفت لاعادة تنظيم قواتها وتحصين مواقعها التي وصلت اليها. وبعد مناوشات بسيطة خلال هذه الفترة تمكن الافرنسيون من افراغ بقية السفن، واصبحوا على استعداد لمتابعة التقدم نحو الجزائر التي لم يبق بينهم وبينها أكثر من ستة كيلومترات. فهيؤوا هجوماً منظماً، وانقضوا على جنود الداي الذين خاضوا المعركة بشجاعة عالية، واظهر الاتراك والعرب والبربر من العناد قدراً كبيراً حتى ان معظمهم لم يغادر مواقعه واستمر في المقاومة حتى ابادت نيران العدو القوات المدافعة عن مواقعها. واستطاع الافرنسيون التقدم حتى اشرفوا على المدينة، واقتربوا من (برج مولاي الحسن) وهو مركز الدفاع الاكبر لاطلاق نيران مدافعهم عن القلعة.

أثناء ذلك كان وزير المالية (الخزنجي) المكلف بقيادة الحامية المدافعة عن (برج مولاي الحسن) والذي كان موضع ثقة الداي (حسين باشا) قد أخذ في التآمر مع الافرنسيين على سيده الداي، مدفوعاً الى ذلك بما عرف عنه من الطموح- أو الطمع- الذي وصل به الى درجة الحقد. والذي كان له دوره في القضاء على حياة قائد الجيش السابق (يحيى آغا) ثم اخذ في التقرب من الانكشارية في محاولة لكسب تأييدهم له للاستيلاء على السلطة. وها هو الآن يحاول التفاوض مع الافرنسيين ويعد مشروعاً للتفاوض على شروط الصلح، في حين كانت الحامية تدافع ببطولة عن القلعة من يوم ١ تموز- يوليو- حتى يوم ٤ منه، واثناء ذلك كانت المدفعية الافرنسية قد

احدثت ثغرات في الجدران ودمرت قواعد القلعة، وقتل القسم الاكبر من أفراد الحامية، ونفدت جميع المؤن والاسلحة، ولم يبق الا ثلاثة مقاتلين خافوا أن تحتل القوات الافرنسية قلعتهم وتستخدمها ضد المواطنين الجزائريين في المدينة والقصبة، فأوقدوا النار في مستودعات البارود، فدك البرج وتهادى على الأرض. وهلك خلق كثير. وادى ذلك الى مزيد من الهياج والاضطراب، إذ عرف الناس أنه لم يعد هناك ما يحميهم من اجتياح الافرنسيين.

اخذت روح الهزيمة في الهيمنة بسرعة على الاجهزة الادارية والاجتماعية، وكان للبيان الذي وزعه الافرنسيون دوره في الترويج للهزيمة بين أوساط من يطلقون على انفسهم عادة اسم (المعتدلين) والذين اقتنعوا بان الافرنسيين قد جاؤوا حقاً كمحررين للجزائريين من سيطرة الاتراك العثمانيين. وكانوا يعتقدون أن (فرنسا المتحضرة) لا يمكن أن تعد بشيء إلا اذا كانت مستعدة لتنفيذه. فأصبح هؤلاء من انصار (الحل السلمي). ونجح البيان الافرنسي بذلك من (شل القدرة القتالية) لدى بعض الجزائريين، على الرغم من أن هذا البيان قد صيغ باسلوب غامض، وبطريقة دعائية (اعلامية). المهم في الأمر، هو أن هذه الروح الانهزامية دفعت مجموعة من ممثلي التجار وأصحاب الاموال للاجتماع في قلعة (باب البحرية) يوم ٢ تموز (يوليو). وقرروا أن ضياع المدينة أصبح امراً محتماً. وانه اذا ما دخلها الافرنسيون عنوة فانهم سيستبيحونها، وسينهبون ثرواتها ويعتدون على النساء ويقتلون الأطفال، ورأوا تفادياً لذلك، عدم مقاومة الجيش الافرنسي عند دخول المدينة، وارسلوا وفداً عنهم الى القصبة لمقابلة الباشا، واطلاعه على ما اتفقوا عليه. وأجابهم الباشا عند مقابلته لهم: «بأنني سأقاوم ما دمت

حياً، وان اردتم التسليم فسأتلف القصبة وأموت فيها» ثم نهض ليوقد النار في خزينة البارود، وما استطاعوا صده عن ذلك الا بجهد جهيد. غير أن هذا الحادث أضعف من ارادة (الباشا حسين). فأرسل (بومرزاق مصطفى) الى القائد العام الافرنسي بعد ظهر يوم ٤ تموز- يوليو- ليعرض عليه أمر الصلح، ويعد باعطائه نفقات الحملة الحربية، ويؤكد له صداقة الباشا، وحرية التجارة الافرنسية في البر والبحر. ولكن الجنرال (دوبرمون) القائد العام رفض هذه المقترحات، مدعياً انها لا تساوي ثلم شرف فرنسا، ولا تعادل ثمن دماء الافرنسيين وخسائرهم، فقد قتل منهم (٤٠٠) رجل، وجرح أكثر من الفي شخص. وبعد ساعتين تقدم الى القائد العام تاجران من أغنياء الجزائر، وقالا له: انهما مندوبان عن أشراف المدينة ويطلبان الهدنة والصلح. ولما اقبل المساء ذهب (بومزراق) مع قنصل انكلترا الى المعسكر الافرنسي. وأظهر مصطفى استعداده لخيانة سيده، وحمل رأسه اليه، وتنصيب (الخزنجي) مكانه، غير أن (بورمون) أجابه: (بأنه لم يأت لمساعدة المتآمرين ولكنه جاء حتى يحارب، وانه يقبل اقتراح حسين باشا الذي ينص على الاستسلام). وعندها سأل (بومزراق) و(القنصل الانكليزي) عن الشروط التي يريدها، فدخل (بورمون) وحررها وسلمها الى (بومرزاق) الذي عاد بها الى (حسين باشا) فوقعها هذا بعد أن قرأها على رجاله وحاشيته[1].

كان أول ما فعله الكونت (دوبورمون) هو حل منظمة الانكشارية التي كان عدد افرادها العزاب (٣٥٠٠) والمتزوجين

---

(١) انظر- قراءات ٣- نص (وثيقة الاستسلام).

حوالي (الألف). وأفاد (اليهود) من هذا الموقف فانطلقوا في حملة انتقامية من أسيادهم وحماتهم سابقاً، فنهبوا أموالهم ومنازلهم، واعتقلوا عدداً من العثمانيين عندما تأكدوا من اقتراب الجيش الافرنسي، واخذوا يرقصون في الشوارع معلنين ولاءهم للسيد الافرنسي الجديد. أما (دوبورمون) فاكتفى بترحيل الانكشارية غير المتزوجين الى آسيا الصغرى بعد تجريدهم من أسلحتهم. وبعد ذلك، تبادل حسين باشا ـ الذي كان قد بلغ الخامسة والستين من عمره ـ وبورمون ـ الزيارات، فزار الباشا أولاً بورمون مصحوباً بحوالي خمسين شخصاً من العرب والاتراك، وطالب باسترداد أثاثه وحاجاته التي منها كيس يحتوي على (٣٠) ألف قطعة ذهبية. وكانت زيارة الباشا يوم٧ تموز ـ يوليو ـ وفي اليوم التالي زاره بورمون وخيره في المكان الذي يريد الذهاب اليه، فاختار أولاً مالطا، ولكن خوفاً من بريطانيا خيره (بورمون) في مكان آخر، فاختار (نابولي) التي كان ملكها صديقاً للباشا، فقبلت رغبته، وفي ٣١ من الشهر ذاته، وصل حسين باشا باي الجزائر السابق الى (نابولي) على متن السفينة الافرنسية (جان دارك) وكان برفقته (١١٠) أشخاص من بينهم (الآغا ابراهيم ـ صهر الباشا) ووزير المالية (الخزنجي) ومن بينهم أيضاً (٥٧) امرأة من الحرائر والوصيفات.

لقد كانت الاتفاقية الموقعة بين الداي حسين باشا وقائد الحمله (دوبورمون) **خاصة بمدينة الجزائر، في حين كان الداي (حسين) حاكماً لكل الجزائر، وكان من المفروض أن ينتقل من ولاية الى ولاية** (من بايليك الى بايليك) **ومن مدينة الى مدينة، والا يستسلم بمجرد خسارته لأول معركة لم يتم الإعداد لها بصورة**

مناسبة. فخان بذلك قضية الجزائر، وفرط بالامانة وترك لشعب الجزائر مسؤولية تصحيح (الخطأ التاريخي) أو(الجريمة التاريخية).

دخلت القوات الافرنسية الى مدينة الجزائر مع شروق شمس (الخامس من تموز- يوليو- ١٨٣٠) وأصبح هذا اليوم نقطة تحول حاسمة في تاريخ الجزائر. إذ يعتبر الحد الفاصل بين نهاية الاستسلام وبداية المقاومة المتصاعدة، واخذت الاجيال تتناقل مع كل تطور ذكريات (عشية ليل الاستعمار) الذي بدأ في صباح ذلك اليوم.

وطئت أقدام الغزاة البرابرة أرض الجزائر الطاهرة. واقتحموا أسوار (المحروسة) فنزعوا الاعلام الجزائرية عن الحصون والابراج ودور الحكومة، ورفعوا مكانها الاعلام الاستعمارية، واستولت القوات الافرنسية على خزينة الدولة الجزائرية واملاكها بعد احتلالها العاصمة. وانطلقت لنهب (الاملاك الاميرية) أو المؤسسات العامة، وأموال الحكومة وكنوزها وثرواتها وما تضمه مستودعاتها من المواد الغذائية والاعتدة الحربية، وتم تقويم هذه المسروقات بمبلغ (١٥٠) مليوناً من الفرنكات الذهبية. «وقد سجل المؤرخون بأن ضباط الحملة الاستعمارية اختلسوا (١٠٠) مليون فرنك لأنفسهم، ولم يطلعوا الحكومة على أكثر من (٥٠) مليون فرنك ذهبي. مدعين ان هذا هو المبلغ الذي وجدوه في الخزانة الجزائرية.

كانت الغنائم التي حصل عليها الافرنسيون ـ بالاضافة الى محتويات الخزانة الجزائرية ـ تشمل ألفي مدفع، منها ثمانمائة مدفع

من البرونز الخالص، قيمتها على مقتضى ثمن وزن البرونز، (٤) ملايين فرنك ذهبي. وكان في مخازن الحكومة من الصوف والبضائع المختلفة ما قدر الفاتحون ثمنه بثلاثة ملايين فتكون جملة الغنائم ـ بحسب تقويم الاستعماريين ذاتهم ـ:

نقداً	:	٤٨,٨٦٤,٥٢٧	فرنكاً.
مدافع برونز النحاس	:	٤,٠٠٠,٠٠٠	فرنكاً.
صوف وبضائع مختلفة	:	٢,٠٠٠,٠٠٠	فرنكاً.
المجموع	:	٥٥,٨٦٤,٥٢٧	فرنكاً.

حصلت فرنسا بذلك على أكثر من ضعف نفقات حملتها على الجزائر:

وحصلت فرنسا على ما تحتاجه من المواد الأولية المخزونة في الجزائر.

وابتلعت فرنسا ما كان للجزائر عليها من الديون المتراكمة. وكانت هذه هي الدفعة الأولى من عملية النهب الاستعماري. التي رافقت (ليل الاستعمار الافرنسي في الجزائر) وانطلق جند الغزاة البرابرة، في ذروة نشوة النصر، لتطوير عملية النهب العامة بعمليات نهب خاصة لم تعرف لها شبيهاً إلا في غزوات التتار البرابرة. ولم يسلم منها حتى دور القناصل والتجار الغربيين الذين كانوا يقيمون في الجزائر.

وحملت الغنائم (والمدافع البرونزية) والكنوز والثروات الى فرنسا لتزيين تاج (الحرية والاخاء والمساواة) بأول ثمرة من ثمار الثورة التي كانت تعيش حياة الملكية، والملكية التي كانت ترتدي ثياب الثورة.

٣ـ بدايات المقاومة

ظهر تصميم الشعب الجزائري واضحاً منذ البداية لمقاومة الهجمة الاستعمارية الافرنسية، وتجلى ذلك في الاعمال القتالية التي خاضها الجزائريون مع الافرنسيين منذ الاشتباكات الاولى، وهذا ما شهد به كل المراقبين الذي رافقوا الحملة، وكذلك اولئك الذين كتبوا (تاريخ الحملة) من الافرنسيين وسواهم وقد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند احد مؤرخي الحملة الافرنسية وقادتها، وهو (كلوزول) [١] الذي يصف

---

(١) كلوزول: (BERTRAND CLAUSES OU CLAUZEL) ماريشال فرنسا، من مواليد ميروبواكس (MIREPOIX) (١٧٧٢-١٨٤٢ م) قائد الجيش الافرنسي، ثم حاكم الجزائر، وهو الذي استولى على مسكره سنة ١٨٣٥ م. وكان كلوزول من قادة نابليون بونابرت، ثم اتفق مع (بورمون) على خيانة سيدهما بونابرت، والتآمر مع الانكليز ضده. مما ساعد انكلترا- والحلفاء على النصر، واعادة الملكية، واشتهر بالغدر والخيانة، ومن اقواله: (ان المعاهدات والمحالفات هي مجرد اوراق تمزق ان اقتضت الحاجة لذلك، واذا ما ضربت فرنسا بما بينها وبين الجزائر من اتفاقيات عرض الحائط، فالذنب ذنب داي الجزائر الذي اهان فرنسا) وكان من اشهر المحرضين على الاحتفاظ بالجزائر.

معركة (اسطاوالي) بما يلي: «قامت القوات الجزائرية يوم ١٥ حزيران- يونيو- ١٨٣٠ بهجوم شامل على امتداد الجبهة- وكان لا بد من القتال للدفاع عن كل شبرمن الأرض، وخوض الصراع خطوة فخطوة. حتى امكن في النهاية صد العرب عن الوصول الى الهدف الذي يريدونه.

لقد كانت الأرض مقطعة بالخنادق المتتالية، وكان لا بد من صدهم عند كل خندق. لقد أخفى العرب مدافعهم خلف السياج وبين الانقاض والجدران المتهدمة والغياض الكثيفة. واقاموا كمائنهم هنا بزمر صغيرة يتراوح عدد افرادها بين ستة أو ثمانية من القناصة- مهرة الرماة- فكانوا يعيقون تقدم قواتنا بكفاءة. ولم يكن أمراً نادراً أن تجد النساء وحتى الاطفال عند بطاريات المدفعية وهم يعملون على تلقيم الاسلحة التي كان الرجال يستخدمونها للرمي بدقة عالية وبحذر كبير. وبذلك كانت تتضاعف قدرتهم القتالية». «واعتباراً من هذه اللحظة انطلق الجنود الافرنسيين لعمليات انتقام وحشية. فعملوا على قتل الجرحى والاجهاز عليهم، وتشويه القتلى، وكان الجنود الجزائريون يفضلون الاشتباك بالسلاح الابيض- الخناجر أو المدى- والموت بنتيجة ذلك عن الاستسلام للافرنسيين». وعندماوصلت القوات الافرنسية الى ضواحي الجزائر، بدون مقاومة تذكر، انطلقت القوات الافرنسية لأعمال التدمير المثيرة والإبادة الوحشية والتي وصفها (كلوزول) بقوله: «عند الوصول الى المنازل الريفية، كانت قواتنا قد اجتاحتها ودمرتها وقتلت كل السكان الذين اختبؤوا فيها أو لجؤوا الى الغياض المجاورة. وكان لا بد لمن يقع بصره على مشاهد الإبادة من أن يشيح بوجهه نفوراً منها. ولم يحاول أحد إيقاف هذه الفوضى أو

الاعمال الفظيعة التي ارتكبت تقريباً تحت إشراف القادة الكبار. ولم تمض اكثر من ٢٤ ساعة على هذه الاعمال حتى استطاع الجيش الافرنسي إقامة معسكره فوق أرض مدينة هي من أجمل بلدان الدنيا».

وفي مجال الحديث عن المقاومة، ذكر (كلوزول) ما يلي: «لم تقتصر مقاومة الجزائريين عند الدفاع عن القصر، بل انهم قاوموا بضراوة في القصبة وعند باب عزون. وتميزت المقاومة داخل القلعه بالعناد والتنظيم، فكان المقاتلون يحتلون فوراً مكان من يقتل، ولم يتخل سدنة الاسلحة عن اسلحتهم ومدافعهم إلا بعد أن أصبحت هذه الاسلحة معدومة الفائدة ـ ومدمرة ـ وكان المقاتلون يحاولون سد الثغرات التي تحدثها المدافع بأكياس الصوف، كما كانوا يعملون على وضع مدافع جديدة في أمكنة المدافع المدمرة ويستأنفون رماياتهم. واستمروا في ذلك حتى أصبح من المحال متابعة المقاومة. غير أنه كان من الصعب عليهم التخلي عن مواقعهم واسلحتهم قبل العمل على تدميرها بأنفسهم»[1].

وفي معرض الحديث عن المقاومة تضمن تقرير القنصل السويدي (في ١٠ آب ـ اغسطس ـ ١٨٣٠)[2] ما يلي: «قام الماريشال الكونت دوبورمون بجولة وصل بها حتى ـ بليدا ـ القرية الصغيرة الواقعة في سفوح جبال الأطلس وعلى بعد مسافة غير بعيدة عن

---

(1) LA RESISTANCE ARMEE ALGERIENNE PP. 17 - 19

(2) REVUE D'HISTOIRE ET DE CIVILISATION DU MAGHREB.

(FACULTE DES LETTRES D ALGER)JANVIER 1968 NO : 4 P.P 42. 44.

الجزائر. ولقد اراد بهذه الطريقة، وبما عرف عنه من أساليب رقيقة، اكتساب ثقة المواطنين العرب ومحبتهم، واعتقد انه يستطيع بذلك اقامة علاقات مع العرب المقيمين في الجبال والسهول المحيطة بالمدينة. وانطلق الماريشال لهذه الزيارة ومعه هيئة اركانه وقوة (١٢٠٠) جندي من المشاة، ومئات الفرسان (الخيالة) ومدفعي ميدان. وكان سيندم حتماً لو لم يصطحب معه هذه القوة لحراسته لمجابهة المبادرة التي استقبله بها سكان (بليدا) وما يجاورها. إذ تظاهر سكان (بليدا) باستقباله استقبالاً حسناً، وعامله أهل القرى معاملة حسنة، لكنه ما ان بدأ رحلة العودة الى الجزائر، حتى انقض عليه آلاف العرب ورجال القبائل، وارغموه على التوقف وشق طريقه في ست مرات متتالية، والقتال قتالاً تراجعياً طوال الرحلة. وفقد أثناء هذه الاشتباكات أحد معاونيه، وعدداً من ضباطه والمئات من رجاله في هذه المحاولة العقيمة لكسب ثقة الرجال المعتصمين في صياصي جبالهم واعاليها. والذين رفضوا عبر التاريخ الخضوع لأية أمة. مما يؤكد انه من المحال اقامة علاقات بين المسلمين والمسيحيين ؟ وقد يكون من الصعب الآن معرفة نوايا الافرنسيين تجاه الجزائر بحسب ما يقع تحت أبصارنا ففي حين يظهر الافرنسيون وهم في عجلة من امرهم عند نقل الغنائم والكنوز والثروات والمدافع الى فرنسا مما يشير الى احتمال عودتهم سريعاً الى بلادهم، فانهم يشقون الطرق العريضة والمستقيمة، وينظمون الساحات العامة والمسارح والملاهي الخ... مما يحمل على الاعتقاد بأن اقامة الفاتحين ستستمر طويلاً في هذه البلاد».

لم تكن هذه المقاومة إلا رد فعل أولي تجاه الاعمال الوحشية للغزاة البرابرة والتي وصفها مؤرخ فرنسي بقوله: «لم تعرف مدينة

في العالم ما عرفته الجزائر من الفوضى يوم اجتاحتها القوات الافرنسية. فقد اختفت الحلق والسلاسل والعقود والصواري والأخشاب والسنانير من الميناء، واقتلعت الابواب من المحلات العامة. ونهبت الأموال والاثاث والحلي من المنازل. وكثر الاعتداء على الأشخاص والأعراض»[١] هذا في حين كانت القوات الافرنسية تنطلق في الشوارع لتوزيع المنشورات على المحلات العامة، ولتعلق على الجدران تلك الاعلانات: «لتؤكد للسكان احترام السلطات الافـرنسية للدين الاسـلامي والنساء والممتلكات، وان المسلمين هم الذين سيتولون باستمرار ادارة امورهم»[٢] غير انه لم يمض أكثر من شهرين على هذا التعهد، حتى أمر القائد العام بمصادرة ممتلكات الاتراك وأراضي الأوقاف، وأسرع القائد (روفيجو)[٣] فأمر بتحويل أجمل مسجد في مدينة الجزائر الى كنيسة، وقام الجنود الافرنسيين باقتحام المسجد على حين كان في داخله أربعة آلاف مسلم، واعملوا فيهم القتل بالحراب وهم يؤدون الصلاة داخل المسجد الذي لم يلبث أن تحول الى (كاتدرائية الجزائر). ولم يكن من الغريب ان يستقبل الجزائريون العزل قوات الغزاة البرابرة ـ بمزيج من مشاعر الغضب

(1) - GABRIEL (ESQUER): LA PRISE D'ALGER 1830 - PARIS - 1929 EDITION . P : 411.

(2) . REVUE D' HISTOIRE ET DE CIVILISATION . ALGER . JANVIER. 1968 No 4 OP.42.

(٣) روفيجو: (RENE SAVARY: DUC DE ROVIGO) جنرال افرنسي (١٧٧٤-١٨٣٣) برز اسمه في معركة اوسترالانكا: (OSTROLENKA) وهي المدينة البولونية التي انتصر فيها الافرنسيون على الروس سنة ١٨٠٧، واصبح وزيراً للشرطة في عهد الامبراطورية الاولى وهو مؤلف كتاب مذكرات (MEMOIRE)

والاحتقار. وهو الأمر الذي وصفه احد المؤرخين بقوله: «**دخلت الجيوش الافرنسية مدينة الجزائر، فوجدتها صامتة يسودها سكون رهيب، وظهر لها إنها خالية من سكانها. وكانت ذهول الافرنسيين لهذه المقابله كبيراً ظهرت آثاره على وجوههم وتحركاتهم. ولم يحاول- الافرنسيون- اخفاء دهشتهم لما تركته هذه المدينة الخرساء من انطباعات غريبة في نفوسهم، مع ان المدينة لم تكن خالية تماماً، فهنا تشهد تاجراً يقبع أمام دكانه المغلق، وهناك تلمح اشباح نساء فوق سطوح المنازل، وفي ملتقى الطرق، كانت جماعات قليلة من الجزائريين والاتراك تدخن في صمت ثقيل. ولئن كانت هذه المناظر كلها تمثل للفرنسيين مشاهد (للفرجة) فان الجزائريين لم يعيروا الافرنسيين أدنى اهتمام، وكأنهم لم ينتبهوا فعلاً لوجودهم- وان هذا الاحتقار الواضح، الذي قوبل به جنود الاحتلال الافرنسي هو الذي جعل هؤلاء المنتصرين يستغربون من هذا الوضع ويتعجبون...**»[1].

هكذا استقبلت الجزائر المجاهدة قوات الغزو البربرية بمزيج من المقاومة السلبية والايجابية، غير أن هذه المقاومة لم تكن إلا البدايات المبكرة، وكانت هذه البدايات المبكرة هي الاساس الثابت للتطورات المستمرة والمتعاظمة.

وفي الواقع، فقد يكون من الصعب فصل المقاومة السلبية عن المقاومة الايجابية، فهما متداخلتان ومتشابكتان الى حد كبير لانهما تعبير عن (الرفض الكامل للاستعمار الافرنسي) واذا كان المجاهدون قد استطاعوا التعبير عن غضبهم ورفضهم بالرصاصة، فقد لجأ المجاهدون ممن لم يجدوا الرصاصة، أو لم يتمكنوا

---

(١) تاريخ الجزائر- مسعود- ص ١٣٠- ١٣١.

لعوامل كثيرة من استخدامها فقد استخدموا اسلوب (الصمت القاتل) كتعبير ثابت عن الغضب والرفض لهذا الواقع الذي فرضته قوة الاستعمار البربرية (وكلمة البربرية هنا تعبير عن الوحشية ورد على الاسلوب الذي استخدمه غلاة الاستعمار ودهاقنته في وصف المقاومة العربية الاسلامية). وقد اخذت المقاومة منذ البداية، على ما هو واضح، اتجاهان متباينة، واتبعت أساليب مختلفة. فكان منها مقاومة التجار والعلماء وزعماء المدن، وكان منها مقاومة شعبية دينية قادها المرابطون. ورؤساء القبائل تحت راية (الجهاد في سبيل الله) والدفاع (عن الاعراض والمحرمات والأرض والشرف والوطن). وكان منها أيضاً مقاومة تندرج تحت (راية الجهاد في سبيل الله) أيضاً غير انها تجد لها حوافزها (الخصوصية) وتمثلها فئة النزوع الى العهد التركي الاسلامي. وقد حاولت السلطة الاستعمارية إضعاف المقاومة عن طريق مهاجمة (الوحدة الدينية للمسلمين) واتهام المسلمين بالتعصب في اطار دفعهم للاتجاه الذي تريده فرنسا الاستعمارية وترضى عنه على انه (لا تعصب). وضمن هذا الاطار حاولت تفسير مقاومة مسلمي الجزائر احياناً بانها نتيجة تعصب المسلمين ضد اليهود (سادة المجتمع الجزائري الجدد تحت حماية الاستعمار) واحياناً اخرى بانها (نزوع الى عودة الحكم الاسلامي) ممثلاً (بحكم الاتراك العثمانيين). ويمكن التوقف قليلاً عند التفسير الافرنسي لظاهرة المقاومة.

لقد انهارت المقاومة الرسمية في الجزائر خلال عشرين يوماً اعتباراً من بداية العدوان، غير أن هذا الانهيار كان هو البداية لشكلين من أشكال المقاومة المسلحة. الشكل الأول هو الذي تولى قيادته الحكام الرسميون (ويمثلهم الحاج أحمد باي قسنطينة الذي

استمر في قيادة جهاد الناحية الشرقية حتى سنة ١٨٣٧) والشكل الثاني هو المقاومة الشعبية التي برزت بصورة خاصة في الناحيتين الوسطى والغربية من الجزائر. ويدحض ذلك مقولات التفسير الافرنسية الخاطئة للمقاومة. ان سبب المقاومة الحقيقي هو في (رفض مبدأ الاستعمار ذاته) والذي جاءت الممارسات الاستعمارية ذاتها لتدعم فكرة الرفض والمقاومة للاستعمار.

لقد كان الحكم الاسلامي، عبر تاريخه الطويل، مناقضاً للتعصب، ولم يثر التعصب الاسلامي إلا نتيجة (التعصب الصليبي) وكان المسلمون هم حماة اليهود منذ فتح الشام وحتى خروجهم من الاندلس، وخلال هذه المرحلة التاريخية المتطاولة شارك اليهود المسلمين انتصاراتهم بقدر ما استثمروا قدراتهم، وتعرضوا أيضاً لما يتعرض له المسلمون عند مجابهة (مأساة انهيار الاندلس الاسلامية». غير ان اصطناع الافرنسيين لليهود في الجزائر، واندفاع اليهود لدعم الصليبية المسيحية ضد المسلمين هي التي شملت (اليهودية والاستعمار الافرنسي الصليبي) بشعور واحد مبعثه الغضب ضد هذا الواقع المفروض بقوة السلاح.

لقد أظهرت الطائفة اليهودية في الجزائر ميلاً واضحاً الى الافرنسيين، كما أظهر هؤلاء لليهود عطفاً أوضح، واعتمدوا عليهم في ادارة العهد الجديد نظراً لمعرفته بالبلاد. وقد مارس اليهودي (دينبي) وكيل التموين دوراً بارزاً في حمل القائد العام الافرنسي على حماية اليهود ودعمهم واستخدامهم. فعينت الادارة الافرنسية منذ اليوم التالي للاحتلال اليهودي (سرور) رئيساً للمترجمين غير الافرنسيين. وقد أصبح (بكري) صاحب نفوذ كبير حتى أن الجيش

كان لا يفعل شيئاً إلا باستشارته. وبذلك حصل على امتيازات كبيرة له ولطائفته. وهكذا أبرز الافرنسيون الجالية اليهودية ودعموها على حساب العرب المسلمين، على الرغم من إقرار الادارة الافرنسية بغدر هذه الطائفة وتنكرها للجميل. إذ أكدوا في مرات كثيرة استعدادهم لبيع الجيش الافرنسي في سبيل مصالحهم، وأصبحوا مرابين ومورطين غير أوفياء بالعهود ـ كعادتهم ـ .ويذكر ان اليهود اتهموا امرأة أحد الاتراك باخفاء السلاح في بيتها، حتى اذا ما تبين للافرنسيين كذب هذا الاتهام، عاد اليهود اليها وطلبوا منها دفع (٦٠٠) قطعة ذهبية حتى لا تتعرض للمعاملة السيئة، فاعطتهم ما يريدون وشكت أمرها الى الافرنسيين فتم اعتقال اليهود وسجنوا. وفي اليوم الأول من الاحتلال اتصل (بكري) بالاتراك، وحذرهم من الخطر الذي يتهددهم، ووعدهم بالحماية مقابل أن يدفعوا له مبالغ حددها لهم. كما اتصل بقومه ووعدهم ان الافرنسيين لن يفعلوا شيئاً بدون موافقته. وكان يطمح الى أن يكون رئيس الطائفة اليهودية ـ كما كان زمن الادارة العثمانية ـ. واتصل ايضاً بمحافظي الشرطة وطلب منهم تسليم كل القضايا الخاصة باليهود اليه، وقد فعل ذلك بدون علم الهيئة المركزية (المجلس البلدي) ورئيس الشرطة. وقد افاد اليهود من دعم الافرنسيين لهم، فعملوا على تهجير كثير من اغنياء العرب من المدينة، وقد تدخل اعضاء الهيئة المركزية لدى رئيس الشرطة لمنع هجرة العائلات الغنية من المدينة.

وهناك من يذهب الى أن ثورة العرب ضد الافرنسيين ـ حتى في الارياف ـ كانت تعود الى النفوذ الذي أصبح عليه اليهود في الادارة الجديدة. غير أن الامثولات السابقة ذاتها، ومسيرة الاحداث التالية، تؤكدان أن الغضب على اليهود، وتسلطهم، انما يعود لمبدأ

الاحتلال ذاته والذي أخل بتكوين المجتمع العربي الاسلامي وذلك باعتماده على اقلية عميلة (اوليغاركية) اسهمت بتنفيذ المخطط الاستعماري الذي كان من أعماله، انتزاع التجارة من قبضة ابناء البلاد واحتلال المنازل والمساجد والأملاك الخاصة والاعتداء على الاعراض وغير ذلك من انتهاك للمحرمات التي دفعت حتى تلك الفئة من (المعتدلين) والتي اعتقدت في البداية انه بالمستطاع التعايش مع المستعمرين في بعض الحدود، دفعت تلك الفئة للتنكر للاستعمار والانضمام الى صفوف المقاومة ومنظماتها.

أما بالنسبة لعلاقة الجزائر بالاتراك العثمانيين (من حيث مزاعم الافرنسيين بعمل الجزائر لاعادة الحكم الاسلامي) فما هي إلا محاولة عرفها الجزائريون قبل سواهم من كل شعوب العالم العربي- الاسلامي. وهدفها دفع الجزائر للتهرب من (الحكم الاسلامي) على اعتبار أن كل ما ينزل بالجزائر هو بسبب تمسكها بالحكم الاسلامي، ولم تكن عملية الهجوم الشامل على الدين الاسلامي فكراً، وعبادة، ومقدسات أكثر من اداة لتحطيم مواقع الصمود الجزائرية. فكان رد الفعل الطبيعي هو المزيد من الاصرار العنيد على التمسك بالاسلام والالتزام بشريعته. أما بالنسبة لطبيعة العلاقة مع الامبراطورية التركية- العثمانية، فلا مجال للحديث عنها هنا، غير انه بالمستطاع القول ان هذه العلاقة ما كانت في يوم من الايام أكثر من (تحالف مقدس) ضد (تحالف صليبي) حيث جمع الجهاد بين مسلمي الجزائر ومسلمي الاتراك. وقد كان في الجزائر، يوم وقع العدوان وفقاً لما سبق ذكره، ستة آلاف تركي، قتل منهم ألف وخمسمائة وبقي (٣٥٠٠) من العزاب وألف من المتزوجين (آباء الكراغلة). وهذا العدد لا يشكل في كل الاحوال قوة احتلال

للجزائر اذا ما ذكر ان عدد المقاتلين الذين حشدوا في الجزائر هو (بين ٥٠ و٧٠) ألفاً من أبناء الجزائر، وعلاوة على ذلك، فقد كان حكام الجزائر يلتمسون تجنيد المقاتلين من الاناضول لدعم قدراتهم القتالية في حروبهم التي لم تكن تتوقف، وعلاوة على ذلك كله، فكثيراً ما كان أهل الجزائر يثورون على حاكمهم التركي عندما كان هذا الحاكم يجأر بالظلم، أو يسلك سلوكاً يتنافى مع قواعد الشرع. ويظهر من خلال ذلك، أو من خلال الشواهد الكثيرة انه لا مجال للمقارنة ابداً بين الحكم التركي العثماني في الجزائر والذي كان يعمل لمصلحة العرب المسلمين، وبين هذا الحكم الاجنبي (الصليبي) الذي جعل من أهدافه محاربة المسلمين. ويكون من الطبيعي ان يشعر الافرنسيون بوضعهم الغريب عند مقارنة حكمهم بحكم الاتراك المسلمين فيوجهون الاتهام الى الاسلام كعامل اساسي في التحريض ضد الاستعمار الافرنسي الصليبي. ومن الطبيعي بعد ذلك كله، أن تكون العلاقات بين الاتراك المسلمين والجزائر الاسلامية علاقة وطيدة صهرتها في سداها ولحمتها دماء الشهداء من الطرفين وهم يسقطون معاً تحت راية (الجهاد في سبيل الله) على امتداد اكثر من ثلاثة قرون. .

على كل حال، لم تكن (طائفة اليهود) سوى فئة مستخدمة لتنفيذ المخطط الاستعماري، ولم تكن (فئة الاتراك- الكراغلة) أكثر من فئة أيضاً حاول المخطط الاستعماري الافادة منها واستثمارها. وكذلك الأمر بالنسبة (لما اطلق عليه اسم حضر الجزائر، وهم الفئة المنحدرة من العرب الاندلسيين) حيث حاولت السلطات الاستعمارية استخدامهم مرحلياً لتمزيق الجزائر الى (ملوك الطوائف) يضرب

بعضهم بعضاً. غير ان سياسة (فرق تسد) كانت تصطدم في كل مرة (بوحدة المسلمين تحت راية الجهاد في سبيل الله). ولم يتمكن (الخوارج) أبداً من كل الفئات **الاسلامية**، ومن كافة طبقات المجتمع الجزائري **الاسلامي**، البقاء في صف اعداء قومهم. وكان للسياسة الاستعمارية فضل لا ينكر في ذلك، إذ أن العدالة في توزيع الظلم قد مارس دوره الاساسي باستمرار في توحيد الجهد (تحت راية الجهاد).

آ ـ فئات من المجاهدين

كان (حضر الجزائر) أحفاد العرب الاندلسيين يشكلون فئة تمتلك بعض الثراء، وكانوا في العهد التركي يحتلون سياسياً المرتبة الثالثة بعد الاتراك **والكراغلة** (من أب تركي وأم جزائرية) وكانوا يملكون الأراضي في سهل متوجه (متيجة) وبعض الممتلكات في مدينة الجزائر ذاتها حيث يمارسون أعمال التجارة، وكانوا غالباً راضين بوضعهم ولا يطمحون للمناصب السياسية، ولو أن بعضهم تقلد مناصب القضاء والافتاء **والكتابة** ونحوها من الاعمال التي تتطلب ثقافة عالية. وعندما بدأ الافرنسيون في (فرز) عناصر المجتمع الجزائري تمهيداً لتمزيقه، صنفوا طبقة (حضر الجزائر) على انها منافسة وساخطة على الاتراك. وهكذا وجهوا انظارهم الى هذه الطبقة التي لم تعارض مبدأ التعاون المشروط مع الافرنسيين الذين عملوا بمجرد الاستيلاء على مدينة الجزائر، على تنحية الاتراك **وإسناد** بعض مناصبهم لهؤلاء الحضر، فتولى بعضهم مركز (**آغا العرب**) مثل حمدان بن أمين **السكة**، وأصبح بعضهم بايا على **التيطري** (**مصطفى بن عمر**) وتم تعيين (أحمد بوضربة) رئيساً لأول **مجلس** بلدي لمدينة الجزائر. ولكن فئة (حضر الجزائر) اكتشفت

بسرعة انها كانت مخططة في اعتقادها بأن فرنسا ستعوض حكم الاتراك بحكم محلي تكون طبقة الحضر في موقع قيادته. وعرف افراد هذه الفئة ان فرنسا قد جاءت لتبقى، وأن اموالهم وأراضيهم قد صودرت لمصلحة الادارة الافرنسية، وان مساجدهم وزواياهم ومساكنهم قد احتلت من الجيش الافرنسي، أو دمرت من أجل اقامة الساحات العامة والمسارح والمستشفيات العسكرية أو تحولت الى كنائس. حتى ان املاك (مكة والمدينة) التي كانت مؤسسات خيرية للفقراء وطلبة العلم قد استولى عليها الافرنسيون، وأصبح ريعها يذهب مباشرة الى خزينة الادارة الافرنسية. وأثناء ذلك كان اعيان هؤلاء (الحضر) يعملون لصالح فكرة (الحكم الاسلامي) سواء لدى السلطات الافرنسية، أو في اتصالاتهم مع الباشا حسين (داي الجزائر السابق) أو مع باي قسنطينة (الحاج أحمد). وعند ذلك كشفت السلطات الافرنسية عن أهدافها، فعملت على عزل أو طرد أو نفي أولئك الذين قبلوا التعاون معها بحجة (عدم قيامهم بواجبهم تجاه الدولة) أو (التآمر لاستعادة الحكم الاسلامي) أو (الانضمام الى فئة الثوار). وزاد نفور (حضر الجزائر) بما اقدمت عليه السلطات الافرنسية من (غدر بعهود الامان) ومن (ذبح للقبائل المسلمة والمسالمة بكاملها، مثل قبيلة العوفية) ومن (أسر للمرابطين كرهائن- على نحو ما فعلته مع مرابطي القليعة) ومن (مطالبة بخمسين شاباً من كبار العائلات في المدينة لحملهم كرهائن الى باريس). وأمام هذه الوقائع، التجأ (حضر الجزائر) الى طرائق متنوعة للتعبير عن غضبهم، وكان أبرز دور لهم هو اثارة ضجيج عالمي لفضح أساليب الاستعمار الافرنسي في الخارج، والتحريض على الجهاد واثارة النقمة في الداخل- وكانت حياة (حمدان خوجة)

هي النموذج الامثل لهذا الجهاد، إذ اخذ علًى عاتقه الدفاع عن قضية (الجزائر) وقضية (الاسلام) خلال تلك الفترة من (بدايات المقاومة).

ولكن اذا لم يكن باستطاعة (حضر الجزائر) تجاوز هذه الحدود في المقاومة، وهي حدود مثمرة ومفيدة على كل حال إذ أنها اسهمت بوضع حجر الاساس للصراع السياسي اللاحق، فقد كان هناك فوق الثرى الجزائري من لا يزال يمتلك القدرة لحمل السلاح. وكان (المرابطون) هم الطليعة الاولى، حيث كانوا يجمعون بين مضمون (الجهاد) وبين الهدف (السياسي). وكان هؤلاء المرابطون يضمون أصالة الجزائر الاسلامية ويمثلونها أصدق تمثيل. فكان فيهم عرب الصحراء ـ البادية ـ والفلاحين وشيوخ القبائل ورجال الدين، وكلهم متفقون على الاستمرار في المقاومة وحصار الجيش الافرنسي في حدود (مدينة الجزائر، وعدم السماح له بتجاوز حدودها. فكان من الطبيعي ان يكون سكان سهل المتوجة (متيجة)[1] هم أول من يصطدم بقوات الافرنسيين.

---

(١) سهل متيجة: (كلمة متيجة هي تحريف للكلمة العربية ـ متوجة ـ بضم الميم وفتح التاء والواء والجيم) وقد اطلق اسم (سهل متيجة) على السهل الذي تحيط به الجبال وتتوجه من اغلب جهاته. وهو عبارة عن سطح مستو ومنبسط حوضي ومنخفض طولي في كل جهاته الغربية، ومفتوح نحو البحر في جهاته الشرقيه، تقرب مساحته من (١٣٠) ألف هكتار. يبلغ طوله من وادي الناطور في الغرب الى وادي بودواو في الشرق نحو المائة كيلومتر. ويختلف عرضه في الأطراف الغربية والشرقية عنه في الوسط، إذ هو عريض في الوسط حيث يبلغ ١٨ كيلومتر، وهي المسافة الفاصلة بين قرية الاربعاء الواقعة عند أقدام جبل الاطلس وبين مدينة الحراش الواقعة عند أقدام تلال الساحل أو في الاطراف الشمالية لسهل متيجة. ويقل هذا العرض الى (١٠) كيلومترات في الاطراف الشرقية والغربية. ويضم السهل مجموعة كبيرة من المدن والقرى، اشهرها البليدة والقليعة =

وكانت هناك حوالي اثنتي عشرة قبيلة منتشرة في سهل متيجة، لكل قبيلة منها مشيختها أو زعامتها، ولكل قبيلة منطقتها- أو وطنها- وعلى كل وطن قائد، فكان هناك على سبيل المثال وطن (بني خليل) وعلى رأسه الشرقي، وكان هناك وطن (بني موسى) وعلى رأسه (أوشفون) وكان هناك وطن (الخشنة) وعلى رأسه (العمري)، وكذلك وطن (الست) وعلى رأسه (عبد الوادي) وكذلك أيضاً (شرشال) التي اعترفت بالبركاني شيخ بني مناصر زعيماً لها. وكذلك (القليعة) التي كانت تخضع لعائلة (ابن المبارك) وهو مرابط له سمعة واسعة. وكانت مدينة (البليدة) هي عاصمة (سهل المتوجة) أو(المتيجة). وعندما شعرت هذه القبائل، والمدن المجاورة بالخطر، تحالفت، وقررت المقاومة، ومن ثم ابتدأت سلسلة من الاصطدامات مع العدو، وتحولت شيئاً فشيئاً الى ثورة عامة. وظهر خلال هذه الثورات زعماء مارسوا دوراً اساسياً وبارزاً خلال السنوات الاولى (من ليل الاستعمار الطويل). وقد يكون من الصعب الاحاطة بكافة الظواهر الثورية خلال تلك الحقبة الحافلة بكل ظواهر الاضطراب، غير أنه ليس من العسير استقراء بعض تلك الظواهر.

ب- ثورة ابن زعمون:

كان (ابن زعمون) من قبيلة فليسة، وقد تولى قيادة قبيلته عندما احتل الافرنسيون الجزائر، وأظهر تصميمه على منع تقدم الجيش الافرنسي نحو (البليدة) فانضمت اليه قوات العرب في المنطقة، وعرض عليهم القضية بما في ذلك

= وشرشال وبوفريك (المرجع- مدينة الجزائر نشأتها وتطورها- علي عبد القادر حليمي- الجزائر ١٩٧٢ ص ١٥).

مشروع الدفاع عن حريتهم ووجودهم ودينهم مع الاعتراف بالسلطة الافرنسية في الجزائر، وكان ذلك في الشهر الأول من الاحتلال حين علم أن قائد الحملة (دوبورمون) يريد الزحف على (البليدة). ولذلك كتب الى (دوبرمون) يطلب منه عدم التقدم إلا بعد توقيع معاهدة مع العرب تنظم العلاقة مع الافرنسيين. ولكن (دوبورمون) قرر الذهاب الى البليدة في يوم ٢٥ تموز (يوليو) عام ١٨٣٠ على رأس جيش من ألفي جندي مشاة وبعض مئات من الخيالة- الفرسان- ومدفعين (وقد سبقت الاشارة الى ما نزل بهذه الحملة من الدمار). وعلى أثر ذلك أصبح (ابن زعمون) صاحب نفوذ كبير في اقليم الجزائر. بسبب كفاءته القيادية العالية التي اظهرها في قيادة قواته ضد الافرنسيين، وبسبب ما اظهره من البطولة لايقاف تقدم العدو، وأخذت قوته في التعاظم يوماً بعد يوم. حتى اذا ما أقبل يوم ٢٦ تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٣٠ م، هاجم ابن زعمون مدينة البليدة بقوات ضخمة، واقتحم المدينة، ودارت معركة قاسية انتقل فيها الصراع من شارع الى شارع ومن منزل الى منزل، وابيد خلالها عدد كبير من الحامية الافرنسية (التي كانت تعمل تحت قيادة العقيد رولير) وسقط عدد من سكان المدينة (اهاليها). وعندما وصل (كلوزول) في اليوم التالي قادماً من حملته الفاشلة على مدينة المدية (عاصمة اقليم تيطري) وجد المدينة (بليدة) وقد غطتها الجثث التي كان من بينها (٥٠) جندياً افرنسياً من جنود المدفعية، ممن قتلتهم قوات (ابن زعمون). وأصيب (كلوزول) بصدمة قاسية قرر على أثرها سحب القوات الافرنسية الباقية من (البليدة). وعاد بفلول جيشه الى مدينة (الجزائر).

دعمت انتصارات المجاهدين في (البليدة والمدية) من ثقة

المقاتلين بأنفسهم، وعززت ايمانهم بالنصر على قوات الغزو. وزادت قوة (ابن زعمون) بانضمام (الحاج سيدي السعدي) اليه، واضطلاعه بأعباء حشد المجاهدين ودعوته الناس لحمل السلاح والجهاد في سبيل الله، وفي هذا الوقت ذاته، كان مصطفى بومرزاق ينظم المقاومة ويقودها للقتال في منطقة بوفريك، تاركاً لابن زعمون وسيدي السعدي منطقة (الجانب الايمن لوادي الحراش) حتى تنشر قواتها عن هذه المنطقة وتدافع عنها. وبذلك كانت القوتان تضمنان حماية (سهل المتوجة ـ متيجة).

قام (ابن زعمون) بقيادة قوات المجاهدين في صيف سنة (١٨٣١ م) فهاجم بها المراكز الافرنسية الامامية، وأشعل النيران بالمزرعة النموذجية التي أقامها الافرنسيون قرب (وادي الحراش) وهي المعروفة باسم (حوش حسن باشا) والتي كان الافرنسيون يعدون العدة للاحتفال بأول حصاد لها. وتطورت الاعمال القتالية التي استمرت طوال أيام عديدة حتى باتت تهدد العاصمة (الجزائر) ذاتها. وعندئذ قرر الجنرال الافرنسي (برتزين) مجابهة الموقف، فزج ست فرق عسكرية. بالاضافة الى قوة الفرسان ـ الخيالة ـ بكاملها، وبعض المدفعية. وهاجم قوات (ابن زعمون) و (سيدي السعدي) عند مكان يسمى باسم (المرابط سيدي ارزين). غير أن قوات المجاهدين تجنبت الاصطدام بهذه القوة المتفوقة وانسحبت الى الجبال المجاورة، تاركة لقوات الافرنسيين حرية العمل في منطقة (الفراغ العسكري) ولم يجد (برتزين) امامه الا أن ينسحب بقواته الى الجزائر معتقداً أنه قد نجح في وضع حد للثورة. غير أنه ما كاد يرجع حتى عادت قوات المجاهدين الى مسرح عملياتها تحت قيادة قادتها (ابن زعمون وسيدي السعدي).

قاد (ابن زعمون) بعد ذلك قواته في خريف ١٨٣١ م وخاض

معها معركة (بوفريك- أو بوفاريك) وأفادت القوات الافرنسية من تفوقها بقدر ما استثمرت سوء تنظيم القوات المهاجمة فتمزقت قوات (ابن زعمون) تمزقاً لم يتمكن معه قائدها من اعادة تنظيمها، مما أغضبه، فقرر الانسحاب والاعتزال في منزله (في فليسة) وامتنع بعد ذلك عن المشاركة بأي عمل. أما رفيق جهاده (سيدي السعدي) فقد انضم بعد ذلك الى الأمير (عبد القادر).

ج- سيدي السعدي والجهاد

كان (سيدي السعدي) من اسرة كبيرة من المرابطين المقيمين في الجزائر. اشتهر بين قومه بالتقى والشجاعة، واسهم بقدر غير قليل في اثارة القبائل ضد اعداء الدين، وفي التحريض على الجهاد وطلب الشهادة في سبيل الله، وامكن له تحقيق نجاح في مسعاه بفضل ما عرف عنه من الصدق والاخلاص. وقد خرج من الجزائر بمجرد دخول القوات الافرنسية اليها، وأقام بين قومه المرابطين في (سهل المتوجه-المتيجة) داعياً للثورة. ووجد في (ابن زعمون) كفاءة قيادية جيدة، واخلاصاً في القتال. فمضى لدعمه وتأييده. وبفضل دعوته وتأثيره، هاجم (عرب متيجة) المنتشرين في الفحص (الضواحي) المزارعين الاوروبيين الذين أخذوا في احتلال السهل والاستقرار فيه. وقد قتلوا اعداداً كبيرة منهم، واضطروهم الى الفرار واللجوء الى العاصمة. وكان لهذه الاحداث أثر على الاوروبيين الذين تزايد خوفهم وقلقهم فغادروا مزارعهم. وانتقل الخوف الى (مدينة الجزائر) فأغلق الاوربيون متاجرهم ومؤسساتهم، واخذوا في التفكير بالعودة الى اوروبا، حاملين معهم ما أمكن لهم الحصول عليه من الغنائم والثروات. وساد الاعتقاد بانه من الصعب مقاومة

هذه الثورة الشاملة، وظهر لفترة بأن المستعمرة الوليدة- الجزائر- قد ولدت وهي ميتة. واستمر (الحاج سعدي) في تجواله بين القبائل داعياً الى الثورة العامة وعلم القائد الافرنسي بتحركات (السعدي) بين القبائل، وانضمام كل شيوخ القبائل الى الثورة بفضل تأثيره من جهة، وبفضل جرائم الاستعمار من جهة اخرى، إذ اتهم الافرنسيون (قبيلة العوفية) بالاعتداء على وفد فرحات بن سعيد (الذي جاء يطلب التعاون مع الافرنسيين) وقاموا بالهجوم على هذه القبيلة ليلاً، في ٧ نيسان- ابريل- ١٨٣٢ م وابادوها عن آخرها. وحاكموا شيخها (الربيعة) وأعدموه، رغم براءة القبيلة من هذه الحادثة، وبالرغم من سلوك شيخ قبيلة العوفيه سلوكاً مسالماً، وحمله هدية الى القائد الافرنسي (دورو فيغو) وزاد هذا الحادث من سخط القبائل على الافرنسيين، حتى أن (آغا العرب الحاج محي الدين)[1] الذي عينه الافرنسيون، لم يلبث أن انضم الى الثوار، وترك لهم حرية الدعوة للجهاد في (القليعة) مقر اسرته. وقرر القائد العام الافرنسي القضاء

(١) كان الجنرال (برتزين) في سنة ١٨٣١ يحاول مهادنة العرب، فاستنصح حضر مدينة الجزائر، فنصحوه بتعيين الحاج (محي الدين بن الصغير بن سيدي علي مبارك- في منصب - آغا العرب في سهل متيجة. وكان قائد الحملة الأول (دوبورمون) قد عين (الحاج ابن عمر) في منصب الباي، وعين ابنه (حمدان بن أمين السكة- منصب آغا العرب- واثناء حملة الافرنسيين على المدية (تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٣٠) كلف الافرنسيون (آغا العرب حمدان) بمراقبة العرب في سهل متيجه. غير ان هذا ترك العمل والتزم في منزله معتكفاً، وعندما اراد الافرنسيون صب نقمتهم عليه حاول خداعهم، فعزله كلوزول في ٧ كانون الثاني- يناير- ١٨٣١، وألغى منصب (الآغا) وارسل حمدان منفياً الى فرنسا. ثم عينت فرنسا ضابطاً في منصب آغا العرب (العقيد ماندري). وبعد ذلك تم تعيين (محي الدين بن الصغير) في هذا المنصب في محاولة لتهدئة (الثورة في سهل متيجة).

على الثورة، فاتهم (آغا العرب) بالخيانة، وطلبه للمحاكمة، وخرج هو بالجيش الافرنسي الى (بئر خادم) ومن هناك وجه جزءاً من الجيش الى (القليعة) والى (سوق علي) قرب (بوفريك) التي كانت قاعدة الثوار. وقد اشترك في القتال الذي دار في بداية شهر تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٨٣٢ م، كل من الجيش الافرنسي، وفرقة (صيادي افريقية) وفرقة (الزواف) الخاصة، وانتهت المعركة بهزيمة المجاهدين الثوار وانسحابهم الى الجبال والمدن المجاوره. (وفر الآغا محي الدين مع الحاج سيدي السعدي والتحقا بالامير عبد القادر، حيث أصبح الآغا محي الدين خليفة للامير عبد القادر على مدينة مليانة).

د ـ ثورة الآغا محيي الدين بن المبارك

لم يكن الآغا (محي الدين بن المبارك) مغموراً في قومه، فقد كان قائداً مرابطاً في (مدينة القليعة) عندما اقتحمت القوات الافرنسية الجزائر. وقد حاول القائد الافرنسي (برتزين) اخماد الثورة اللاهبة في سهل متيجة عن طريق تعيين (محيي الدين بن الصغير بن سيدي مبارك) في منصب (آغا العرب). غير أن محي الدين لم يقبل المنصب إلا بعد أن تعهدت له فرنسا بدفع مبلغ (٧٠) ألف فرنك سنوياً. وتعهد لها هو ببقاء العرب حيث هم، بشرط أن يبقى الافرنسيون حيث هم أيضاً. وبعبارة اخرى، كان هذا الشرط تجميداً للأوضاع، وأصبح الافرنسيون محاصرين في مدينة الجزائر. والتزم الطرفان بتنفيذ هذه الشروط في سنة ١٨٣١ م. وكان (الآغا) يوصي في جميع رسائله إلى القائد العام الافرنسي، بعدم السماح لأي افرنسي أن يتصل بالأهالي أو يذهب اليهم، وكان يصر

على أن يكون هو الصلة الوحيدة بين العرب والافرنسيين. ويذكر بعض المؤرخين أن مراسلاته القليلة قد أصبحت هي وسيلة الافرنسيين الوحيدة للتعرف على أحوال العرب. وقد مارس (الآغا محيي الدين) قيادته لقومه بحكمة وكفاءة، فأمكن له بذلك، وبفضل ما عرف عنه من التقي والورع، فرض سلطته ونظامه على العرب في المنطقة ووضع حداً لأعمال الفوضى. وقام بعزل بعض شيوخ القبائل وتعيين غيرهم، فعين الحاج (محمد المخفي) شيخاً على قبائل الخشنة، خلفاً لابن العمري الذي قتل أثناء الثورة. وأبقى (أحمد بن أورشيف) على قبائل (بني موسى)، و(مسعود بن عبد الواد) على قبيلة (السبت) وكان الرجلان قد شاركا في الثورة ضد فرنسا. وعين أيضاً (العربي بن موسى) على قبائل (بني خليل) خلفاً (لمحمد بن الشرقي). وقد جاءت هذه التعيينات فدعمت من قوة قادة الثورة، الأمر الذي أغضب الافرنسيين إذ أنه عزلهم وجردهم من كل اتصال مع الاهالي. فعملت الادارة الافرنسية على اتهام الآغا بأنه يعمل لحسابه الخاص، وأنه كان يتصل بالقبائل لتشجيعها على الثورة ضد فرنسا، وأنه عندما قامت هذه الثورة العامة قد انضم اليها سراً. وأن تظاهره بالعجز هو من أجل دعم الثورة. وزاد موقفه حرجاً بعدوان الافرنسيين على (قبيلة العوفية) في (٧ نيسان- ابريل- ١٨٣٢م). حيث لم يكن باستطاعة القبائل العربية إلا الانتصار بعضها لبعض، وكان لا بد (للآغا محيي الدين) من أن يتخذ موقفاً واضحاً ضد الافرنسيين وممارساتهم، مما أغضب القائد العام الافرنسي الذي- عزل الآغا- عن منصبه. وعين (حمدان بن عثمان خوجة) ليكون الواسطة بينه وبين الآغا. وخصص شرطة خاصة لمضايقة الآغا ومطاردته وتتبع اخباره ومراقبة تحركاته. كما اخذ في انتهاك الاتفاق

بين الآغا وبينه (على البقاء كل من العرب والافرنسيين في مواقعهم، وامتناع الافرنسيين عن الاتصال بالاهالي إلا عن طريقه). واخذ في الاتصال بالعرب مباشرة، متجاوزاً الآغا ومتجاهلاً له. وتطور الصراع بين الرجلين، فأرسل القائد العام (دورو فيغو) حملة قوية (بقيادة الجنرال بروسارد) بمهمة مهاجمة القليعة، وتدمير قوى الثورة، والقاء القبض على (الآغا محيى الدين) وحمله الى مدينة الجزائر تمهيداً لمحاكمته. غير أن (الآغا) عرف نوايا خصمه، فلجأ الى قبيلة (بني مناد). وعندما لم يجد (بروسارد) الآغا، ذهب الى اسرته واعتقل اثنين منها (وهما سيدي علال وسيدي محمد) ابنا عم الآغا، وكلاهما من المرابطين، وحملهما الى الجزائر، وألقى بهما في السجن، لمدة زادت على السبعة أشهر. وعندما أرسل الآغا مساعده (حميدو) بمهمة نقل رسالة من قبله الى القائد (الجنرال فوارول) قام هذا بتحويل الأمر الى (الجنرال دورو فيغو) الذي كان يحقد على الآغا، فقام باعتقال (حميدو) وقرر محاكمته، ولم يحتمل (حميدو) الصدمة فمات في سجنه. وعلى الرغم من هذا الحادث، فقد استمر (الآغا) في محاولاته، فكرر الكتابة الى القائد العام الافرنسي للتأكيد على براءته مما هو منسوب اليه من اتهامات. وعندما يئس (الآغا محيى الدين) من الوصول الى نتيجة ايجابية، كتب مباشرة الى ملك فرنسا ـ لويس فيليب ـ والى وزير حربيته، مؤكداً اخلاصه. ومنها الرسالة التي وجهها يوم ٢٤ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٣٢ الى الملك الافرنسي يخاطبه فيها باسم العرب الذين تجمعوا حوله (بني مناد) ويطالبه بوضع حد لحكم (دورو فيغو) المتعسف، واحلال العدل الذي وعدت به فرنسا الجزائريين. وكذلك رسالته الى وزير الحربية بتاريخ ٢١ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ١٨٣٢ م. والتي

اشتكى فيها من القائد العام واتهمه بارتكاب الاخطاء، والاصغاء الى انصار عودة الحكم التركي الى الجزائر، والعمل ضد كل ما يكتبه اليه من نصائح وآراء تخص العلاقات مع العرب. وأدى ذلك الى زيادة تطرف القائد العام (دورو فيغو) وامعانه في استخدام أساليب القهر ضد عرب الجزائر، فحاول القضاء على الآغا محي الدين بالاغتيال السياسي، وكلف احد المترجمين بالبحث عن قاتل لاغتيال الآغا غير أن هذه الوسيلة فشلت. فقرر معاقبة مدينتي (البليدة والقليعة) على دعمهما للثوره وفرض عليهما غرامة قدرها (مليون ومائة ألف فرنك). وكان عدد سكان القليعة لا يتجاوز (١٥٠٠) نسمة وهم في حالة من الفقر لا تسمح لهم بدفع الغرامة المفروضة عليهم، فقامت اسرة (المبارك) الذي كان زعيمها في سجن الافرنسيين بالجزائر، بدفع مبلغ عشرة آلاف فرنك. في حين قام (حاكم القليعة) بدفع مبلغ (١٤٠٠ فرنك) فقط بالنيابة عن سكان القليعة. وأخذ القائد العام (الدوق دورو فيغو) بعد ذلك في ممارسة سلطاته للاتصال مباشرة بشيوخ القبائل وفرض الهيمنة الافرنسية عليهم. فحاول في بداية الأمر تعيين (احمد بن شنعان) من قبيلة (بني جاد) والذي ذكر الافرنسيون أنه اتصل بهم عشية معركة (اسطاوالي) في ١٩ حزيران- يونيو- ١٨٣٠ ليحل محل (الآغا محيى الدين). ولكن أهل المنطقة رفضوه وقاوموه. وعندما حاول القائد العام فرضه على (أهل البليدة) بالقوة، رفض هؤلاء بدورهم قبول هذا التعيين ووجهوا تهديدهم الى (أحمد بن شنعان) بالقتل. فلجأ الى العاصمة بعد أن أقام فترة قصيرة في البليدة. وعدل الدوق عن تعيينه، غير انه قرر القيام بحملة ضد (البليدة) فهرب أهلها منها والتجؤوا الى الجبال المجاورة. ودخلها الجيش الافرنسي، فعاث

فيها فساداً ثم رجع الى العاصمة (مكللاً بالعار لا بالغار- كما يقول الافرنسيون ذاتهم). كما قرر الدوق تعيين رؤساء جدد (شيوخ) على القبائل غير موالين للآغا (محي الدين). فعين (ابن رباح) على قبائل بني موسى. وعين (سي حمود) على قبائل (بني خليل) وابقى (الحاج المخفي) على قبائل الخشنة. وتجاوز (الدوق دورو فيغو) بعد ذلك هذه المرحلة فأخذ في الإعداد لتصفية قادة المقاومة، واولهم (العربي بن موسى) قائد (بني خليل، و(مسعود بن عبد الواد) قائد (السبت). و(الآغا محيى الدين) على اعتبار ان هؤلاء القاده اظهروا باستمرار استعدادهم لتحريض العرب ضد فرنسا. واراد استدراجهم الى الجزائر، فكتب بتاريخ ٦ تشرين الأول - اكتوبر- ١٨٣٢ الى أهل البليدة، طالباً منهم ارسال وفد الى الجزائر يضم هؤلاء القادة. فشعر الآغا (محيى الدين) بالخطر، وامتنع عن الذهاب وانضم الى (الامير عبد القادر الجزائري) على نحو ما سبقت الاشارة اليه. أما القائدان الآخران فقد راودتهما الشكوك، وشعرا بالمكيدة، فترددا بالذهاب واشترطا الأمان. وأرسل اليهما الدوق الأمان عن طريق صديقهما (الحاج المخفي) الذي لا يشكان في نيته. وجاء معهما المخفي الى الجزائر. فتم اعتقالهما بمجرد وصولهما الجزائر، والقي بهما في السجن. واحتج صديقهما (الحاج المخفي) كما أرسلت عرائض الاحتجاج من القبائل، غير ان الدوق جاء بقضاة حاكموهما ونفذ الافرنسيون حكم الاعدام فيهما. وكان لاستشهاد (العربي بن موسى ومسعود بن عبد الواد) على هذه الصورة الغادرة دوره في زيادة غضب القبائل العربية. ونفذ حكم الاعدام في شباط (فبراير) عام ١٨٣٣ م- قبل شهرين من عودة (دورو فيغو) الى باريس ثم موته في حزيران- يونيو- من السنة ذاتها.

هـ ـ بو مزراق ـ باي تيطري :

ما ان استقرت السلطة الافرنسية في الجزائر العاصمة، حتى اخذت في البحث عن الوسائل والطرائق التي يمكن لها استخدامها للسيطرة على البلاد، وحاولت في البداية ان تعتمد على الاقليات، اليهود بصورة خاصة، وكذلك الفئات غير التركية (حضر الجزائر). ويذكر أن (كلوزول) قائد الجيش الافرنسي بعد (دوبورمون) قد طلب من اعيان مدينة الجزائر قائمة بأسماء العائلات الكبيرة في المدينة ليعين منها (بايا) على اقليم (تيطري). وحاول الافرنسيون الاستمرار في تقليد العثمانيين عند اسناد منصب (الباي) الى من يرغبون، فكانوا يخلعون على الشخص الذي يسمونه (باياً) القفطان المميز للباي ويسلمونه سيفاً، غير أن الفرنسيين لم يلبثوا أن الغوا بسرعة منصب الباي. المهم في الأمر هو أن (كلوزول) اختار مصطفى بن الحاج عمر (أو مصطفى بن عمار) ليكون باياً على تيطري خلفاً للباي (مصطفى بومزراق) الذي كان قد اتفق مع الافرنسيين ثم ثار ضدهم فخلعوه.

وكان على (مصطفى بن عمار) مواجهة ثورة (الباي السابق) ومواجهة ثورة (ابن بومزراق) وان يقمع اضطرابات الاقليم الثائر، وتنفيذ ما يطلبه الافرنسيون من اخضاع للاقليم. وزاد من صعوبة الموقف ان الافرنسيين اشترطو عليه الابقاء على الادارة السابقة، وعدم اجراء أي تغيير يدعم من سلطته. . فمضى (مصطفى بن عمار) الى ممارسة الحد الادنى من واجباته (القضاء والمخالفات ونحوها) والاقتصار في نشاطاته على حدود مدينة المدية[1] ولكن اذا

---

(١) كان الافرنسيون بقيادة (كلوزول) قد دخلوا (المدية) يوم ٢٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ =

نجح الافرنسيون في القاء القبض على (بومزراق) وسمحوا له بالذهاب الى الاسكندرية فان ابنه (سي احمد) قد بقي على مسرح الاحداث ينتظر الفرصة المناسبة. (ويقال ان كلوزول قد اعترف بانه ارتكب خطأ عندما لم يعتقل سي احمد عندما اعتقل والده). واقام (سي احمد) في المدية مقر حكم والده، وقاد الثائرين ضد (مصطفى بن عمار) واحتل دار الباي الريفية، وكان يدخل المدينة ويغادرها دون أن يحاول الباي ابن عمار اعتقاله. وعندما تفاقم الأمر طلب ابن عمار النجدة من القائد الافرنسي العام في الجزائر. فجاء (برتزين) بنفسه، وعندها انسحب (سي احمد بن مصطفى بن بومزراق) الى الجبال المحيطة. وعاد (برتزين) الى الجزائر مصطحباً معه (مصطفى بن عمار).

استثمر (سي احمد بومزراق) انتصاره على الافرنسيين، فطاردهم اثناء انسحابهم من المدية. واشتبك معهم عند مضائق جبل (موازية) وانتصر عليهم، وقتل منهم عدداً كبيراً، واستولى على كميات كبيرة من الاسلحة والمواد التموينية. وأقام بومزراق في (المدية). واثناء ذلك. كان الأمير (عبد القادر بن محيي الدين- الجزائري-) ينظم دولة الجزائر، ويحشد القوى ضد الافرنسيين، والتف حوله الشعب الجزائري من ايالة (تيطري) و(وهران). فما كان من (سي احمد بن مصطفى بومزراق) إلا أن أسلم القيادة

= ١٨٣٠ م، وأخذوا (بومزراق أسيراً). وعينوا بدله (مصطفى بن عمار) في تاريخ الجزائر **مجاهد مسعود**- ص ١١٨. أو (مصطفى بن الحاج عمر) في لتاريخ الجزائر الحديث- **سعد الله**- ص ٦٤) وترك (كلوزول) في المدينة حامية افرنسية بقيادة (دانليون) وعاد الى الجزائر.

(للامير عبد القادر) وانضم الى قواته، ومما حفظه له التاريخ قوله:
«لقد غرر الافرنسيون بأبي، وأرغموه على أن يكون عميلهم ضد الشعب، غير أنه أدرك بعد فوات الأوان، أن من واجب كل جزائري ألا يرضى بالاستعمار، ولقد استسلم لهم بعد أن أعطوه كلمة الشرف بأنه لن يمس بأذى، ولن يخرج من بلاده، وبعد ذلك رأوا أنه لا بد لهم من إخراجه من الجزائر، فاستولوا على أمواله، وشردوا أسرته، وعلى كل حال، فان ما قامت به فرنسا من التنكر لباي تيطري ليس بالأمر المستغرب، لأن فرنسا اعتادت على اعطاء كلمة الشرف ثم العمل على سحبها وفقاً لما تقتضيه الظروف. ويعرف العالم اجمع حقيقة أن فرنسا لا ذمة لها ولا مروءة ولا شرف. وان المعاهدات التي تبرمها مع هذا أو ذاك هي معاهدات قصيرة العمر جداً». لقد كان غدر الاستعمار الافرنسي بالجزائريين عاملاً أساسياً في جملة العوامل التي اسهمت في توسيع الهوة الفاصلة بين الاجهزة الاستعمارية والاجهزة الوطنية الجزائرية، وظهر ذلك بصورة خاصة في (وهران) حيث لم يترك المواطنون الوهرانيون وسيلة إلا استخدموها للدفاع عن مقدساتهم وحرياتهم وكرامتهم، وبذلوا جهد المستطاع لحشد كل القدرات والقوى المتوافره للجهاد ضد اعداء الدين والوطن، وكان في جملة جهودهم المبذولة ارسال وفد منهم الى (العلامة محيى الدين) ومطالبته بتولي القيادة ورفع راية الجهاد. غير انه اعتذر عن ذلك بسبب سو حالته الصحية، وكبر سنه. فما كان منهم إلا أن توجهوا الى سلطان المغرب- نظراً لاتصال التراب الوهراني بالمغربي وقرب وهران من المغرب - فقبل ملك المغرب ما طلبه منه اهل وهران، وأرسل جيشاً بقيادة احد الامراء ليكون قائداً عاماً على وهران. وقد اتخذ الامير

المغربي من (وهران) قاعدة له، وانطلق بالمجاهدين حتى وصل الى (مليانة) وبقي هناك لمدة ستة أشهر، وخافت فرنسا من بأسه، كما خافت من تعاظم قوة (احمد باي قسنطينة) وظهر احتمال تعاون القوات المغربية والجزائرية ضد فرنسا، لاخراجها من الجزائر، فأرسلت القيادة العامة في الجزائر تقريراً مطولاً الى وزارة الدفاع الافرنسية طالبة استخدام كل جهد مستطاع لحمل المغرب على سحب قواته التي كان يقودها ابن عم الملك في (وهـران). واستجابت وزارة الدفاع لهذا النداء. فوجهت انذاراً الى سلطان المغرب: «**بأنه اذا لم يأمر قواته بالانسحاب من الجزائر خلال فترة ثمانية واربعين ساعة، فانها ستضطر الى اعلان الحرب على المغرب لتدخله السافر في قضاياها**».

استقبل أهل (وهران) الانذار الافرنسي بالهزء - وحتى بالسخرية ظناً منهم أن (سلطان المغرب) سيكون اكثر حزماً في مواجهة الانذار الافرنسي. غير أن أملهم قد خاب عندما استجاب سلطان المغرب للانذار، وأمر قواته بالانسحاب الفوري تاركاً أهل وهران وحدهم لمجابهة العاصفة الافرنسية. وعلى أثر ذلك، اجتمع العلماء والاعيان. وقرروا التوجه من جديد الى (العالم محيى الدين) في محاولة لحشد القوى، لا سيما وان العالم محيى الدين كان من أكثر القاده المؤهلين لرفع راية الجهاد بسبب ما عرف عنه من الصلاح والتقوى والوطنية. وذهب وفد وهراني قابل (العالم محيى الدين) واعلموه صراحة بأن مصير الجزائر أصبح أمانة في يديه، وأنه الوحيد الذي يستطيع حمل هذه (الأمانة) وانه اذا ما رفض الاضطلاع بالمسؤولية خلال تلك المرحلة الخطيرة. فانه سيحمل وحده نتائج هذا الرفض - أمام الله والتاريخ -. ولم يعد باستطاعة

(محيي الدين) تجنب مجابهة الموقف، فقبل تولي قيادة الجيش، تاركاً للشعب الجزائري حرية تعيين الامير الذي يختارونه لادارة الحكم في الجزائر. وذكر للوفود انه سيعتمد كل الاعتماد على (عبد القادر بن زيان) وعلى ولده (عبد القادر الجزائري) لما يعهده فيهما من الكفاءة والبطولة. فشكرته الوفود على ذلك، وعاهدته على ان تقدم لدعمه كل ما تستطيع. وكان ذلك نقطة التحول الحاسمة التي أدت الى إعادة تنظيم الجزائر تحت قيادة (الامير عبد القادر).

كان ذلك هو الوضع العام الذي جابه قوات الغزو الاستعماري للجزائر، فالمقاومة تتعاظم في كل مكان، وتحولت الانتصارات السهلة التي احرزتها قوات الغزو في بداية الأمرالى عبء ثقيل يرهق القوات الافرنسية في الجزائر بقدر ما يقلق رجال الدولة الافرنسية ذاتها، وزاد الأمر سوءاً ببقاء الوضع المضطرب في ولاية هي من أكبر ولايات الجزائر، هي (ولاية قسنطينة) والتي تولى قيادة المقاومة فيها رجل أمكن له الصمود في وجه فرنسا وقواتها طوال ثمانية عشر عاماً، على الرغم من مجموعة الظروف الصعبة التي كانت تحيط به، وتنتصب في مواجهته، خلال كل عمل من أعماله.

و ـ الحاج أحمد (باي قسنطينة):

تولى (الحاج أحمد) إمارة (بايليك قسنطينة) في سنة ١٨٢٧ من قبل (حسين باشا)، حاكم الجزائر. وكان (الحاج أحمد) مرتبطاً باقليم قسنطينة بالمصاهرة، فكان كرغلياً (أي من أب تركي وأم جزائرية) وكان أخواله من عائلة (ابن غانة) التي كانت لها مكانة وسلطة على عرب الصحراء في نواحي بسكرة والزاب: كان جده هو (أحمد القلى) الذي كان (باياً على قسنطينة) أيضاً، أما والده فقد



الحاج أحمد باي ولد شريف

Hadj Ahmed Bey, Fils de Ahmed Cherif

كان خليفة لحسين باشا. وقد تصاهر أحمد مع عدد من الأسر والقبائل العربية في المنطقة هادفاً الى نيل تأييدهم. فتصاهر مع (ابن غانة) و(المقراني) وقسم من قبيلتي (فرجاوة وزواوة). ولكن اعداءه كانوا أولاد فرحات الذين يتنازعون منصب (شيخ العرب) مع أولاد ابن غانة. وقد واجه الحاج أحمد عدواً لدوداً في شخص (فرحات بـن سعيد) عندما عزله الحاج أحمد من منصب شيخ العرب وإعطاه الى خاله (بوعزيز بن غانة) كما واجه الحاج أحمد خصوصاً في بقية فرجاوة و زواوة، وفي الحزب الذي ظهر ضده في عاصمة اقليمية.

وقف (الحاج احمد) الى جانب (الداي حسين باشا) عندما وقع الغزو الافرنسي، واشترك في معركة (اسطاوالي) وعندما ظهرت النتيجة، وتقررت معركة الجزائر- عسكرياً- انسحب (الحاج احمد) الى (وادي القلعة) ثم الى (عين الرباط - مصطفى باشا الآن) شرقي العاصمة، ثم تابع طريقه شرقاً في اتجاه قسنطينة، بينما انضم اليه أكثر من الف وستمائة مقاتل من الفارين من وجه الجيش الافرنسي ومعهم بعض النساء. وعندما وصل الى (اولاد زيتون) استلم رسالة من (دوبرمون) قائد الجيش الافرنسي يطلب فيها من (الحاج احمد) دفع اللازمة (الجزية) على نحو ما كان يدفعها الى الباشا بعد أن تم توقيع معاهدة التسليم من قبل (الباشا حسين). ووعد (دوبرمون) بالإبقاء على (الحاج احمد) والاعتراف به كما كان من قبل. غير أن (الحاج احمد) رد على ذلك بقوله: «إن مثل هذا الأمر يتطلب موافقة أهل الاقليم الذي يحكمه» ثم واصل سيره نحو (قسنطينة) التي وصل ضاحيتها (الحامة) بعد اثنين وعشرين يوماً. وتوقف (الحاج

احمد) في الحامة لأنه عرف أن خصومه الاتراك قد قاموا بانقلاب ضده، وعينوا بايا جديداً مكانه يدعى (حمود بن شاكر). ولكن انصاره تحركوا عندما علموا بعودته تحت قيادة خليفته (ابن عيسى) وبعض العلماء، وعندما تأكد خصومه من عدم تأييد أهل البلاد لهم قتلوا زعيمهم واعلنوا توبتهم وولاءهم. وتظاهر (الحاج احمد) بالعفو عنهم، ولم يلبث ان (حاكم قادة المنشقين) وأمر بقتلهم وجعلهم مثالاً لغيرهم. وحصل منذئذ كره شديد ضد الاتراك وأصبح لا يثق بهم. واعتمد على تأييد العنصر العربي- الجزائري- الذي اخذ في تكوين جيشه من رجاله. وكان (الحاج علي) يتعرض لضغوط ديبلوماسية قوية، فكان أول عمل له جمع ديوانه واستشارته في موضوع رسالة القائد الافرنسي (كلوزول) التي تتضمن (تعيين الحاج احمد باياً على قسنطينة باسم الملك الافرنسي، شريطة ان يدفع له اللازمة - الجزية-) غير ان الديوان رفض بشكل قاطع الاقتراح الافرنسي باعتبار أن الحاج احمد يستمد سلطته الشرعية من الشعب ومن السلطان العثماني- المسلم- لا من ملك فرنسا. وأرسل (الحاج احمد) رسالة الى السلطان محمود يشرح له الموقف. واثناء ذلك، أصدر (كلوزول) قراره بعزل (الحاج احمد) واتخذ في الوقت ذاته اجراءً (خبيثاً) لإضعاف موقف (الحاج احمد) حيث وقع (كلوزول) معاهدة مع تونس يصبح بمقتضاها (سي مصطفى) أخو باي تونس في تلك الفترة (باياً على قسنطينة) خلفاً (للحاج احمد)[1]. ولم توافق فرنسا على هذه المعاهدة، غير ان هدف

---

(١) وقعت هذه المعاهدة في ١٨ تشرين الأول- اكتوبر- ١٨٣٠، وهناك معاهدة اخرى شبيهة بها وقعها الجنرال- كلوزول- مع ممثل آخر عن باي تونس (اسمه خير الدين) لحكم اقليم وهران.

المعاهدة قد تحقق بتصعيد الصراع بين (قسنطينة) و(تونس). إذ عمل (باي تونس) بعد توقيع المعاهدة على ارسال الرسائل الى اقليم (قسنطينة) داعياً الناس الى الثورة ضد (الحاج احمد) متهمة اياه بالاستبداد والطغيان والخروج على طاعة السلطان، ومعلنة انضمام قسنطينة الى تونس. وتجنبت هذه الرسائل ولو مجرد الاشارة الى الاتفاق مع فرنسا (كلوزول). وأصبح على الحاج أحمد أن يخوض الصراع على عدة جبهات: جبهة ضد فرنسا، وأخرى ضد تونس، وثالثة ضد ابراهيم الذي أعلن نفسه باياً على عنابة، وطالب بعودته الى (قسنطينة) ورابعه ضد باي (تيطري) الذي اعلن نفسه (باشا الجزائر) خلفاً (لحسين باشا) وطالب الحاج أحمد الاعتراف به. وخامسة ضد (فرحات بن سعيد شيخ العرب) الذي عزله (الحاج احمد) وعين بدلاً منه خاله (بوعزيز بن غانه) هذا بالاضافة الى المؤامرات التي حيكت ضده داخل عاصمته. ولم يقف (الحاج احمد) مكتوف اليدين، فجمع ديوانه، وعرض عليهم دعوى (باي تونس) فقرر الديوان إرسال رسالة الى باي تونس يعلمه فيها: (انه لا حق له بالمطالبة بقسنطينة. وان السلطان محمود هو المرجع، فكما ان باي تونس يستمد سلطاته منه، فكذلك باي قسنطينة، وان أهل قسنطينة راضون بحكم الحاج أحمد).

اتخذ (الحاج احمد) خطوة حاسمة بعد ذلك، إذ حمل لقب (باشا) وأمر بضرب السكة (النقود) باسمه وباسم السلطان العثماني. فانتزع المبادرة من (باي تيطري)[1] واحبط مخطط (باي

---

(١) أعلن (باي تيطري) مصطفى بومزراق نفسه باشا، وطلب من الحاج أحمد الاعتراف به لكي يرسل اليه (القفطان) فلم يرد عليه. وقال للوفد (نحن سواء) والبارود =

تونس) ثم عين وزيراً للمالية (هو مساعده بن عيسى) باسم خزنجي- وأعلن ان هذه الاجراءات الادارية تخوله ممارسة السيادة على الرأي العام. غير أن المعركة بينه وبين باي تونس لم تتوقف وانما انتقلت الى بلاط السلطان العثماني، فقد علم (الحاج أحمد) أن باي تونس قد بعث برسائل الى السلطان يصف فيها باي قسنطينة بظلم الرعية والخروج عن الطاعة. فلجأ الحاج احمد الى ارسال وفد برئاسة (سي علي بن عجوز) أحد أعيان قسنطينة ومعه أحد ثقاته وهو (الحاج مصطفى) الى استانبول، حيث ظل أربعة شهور. وقد حمل الوفد الى السلطان موقف الارادة العامة التي استندت على توقيعات رؤساء القبائل واعيان البلاد وجميعها تؤيد حكمه وتنفي عنه الاستبداد والظلم. وبعد السيطرة على الموقف في قسنطينة، التفت (الحاج احمد) الى خصومه الذين تخلص من بعضهم بمساعدة الظروف، ولكن بعضهم ظل كالشوكة في حلقه. فقد خرج لمحاربة ابراهيم وفرحات بن سعيد. فهرب الأول إلى عنابة عن طريق تونس، والثاني إلى أولاد جلال في أعماق الصحراء، حيث ظل يحارب بدون هوادة، وكان (ابراهيم) في عنابة قد تواطأ مع الافرنسيين أولاً، ثم أعلن الحرب عليهم، وأخرجهم من المدينة، ولكن ابن عيسى، مساعد الحاج أحمد، حاربه واضطره للهروب، ثم تحولت المعركة على عنابة بين ابن عيسى والافرنسيين. وعندما أيقن (ابن عيسى) من تغلب الافرنسيين عليه، خرج منها هو وسكانها، ودخلها الافرنسيون من جديد، واستقروا بها بعد سنتين

- هو الذي يقرر بيننا. فعزله بومزراق وعين بدله غريمه ابراهيم. ولكن بومزراق انهزم امام الافرنسيين وأسروه في تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٣٠ واستقر بعد ذلك في الاسكندرية، وتخلص الحاج احمد بذلك من احد خصومه.

من احتلال الجزائر. وقد كان احتلالهم لعنابة، أهم موانىء اقليم قسنطينة، سبباً في توتر مستمر بين فرنسا والحاج أحمد. وقد عين الافرنسيون على عنابة (يوسف المملوك)[1]. أما ابراهيم، فقد احتمى بالجبال، وواصل مقاومته للحاج احمد الى سنة ١٨٣٤ م. وكان في الوقت ذاته يحارب الافرنسيين، ثم التجأ الى (مدينة المدية) حيث مات، ويقال انه اغتيل من عملاء الحاج أحمد. واذا كان الافرنسيون قد خلصوا (الحاج أحمد) من خصمه (بومزراق) حين ابعدوه الى الاسكندرية (خريف ١٨٣٠ م) كان ابنه (سي أحمد) قد انضم الى الحاج أحمد وأصبح خليفة له ورشحه أن يكون صهراً له. غير أن (سي أحمد) لم يلبث أن فر من عنده، والتجأ الى الامير عبد القادر (الخصم الآخر للحاج أحمد)[٢٥].

بذل (الحاج احمد) جهوداً كبيرة للحصول على دعم عاجل من (السلطان محمود) غير أن جهوده لم تنجح في تأمين المساعدات خلال الفترة التي كانت فيها (قسنطينة) أحوج ما تكون لهذه المساعدات. وعاد الوفد الذي أرسله (الحاج احمد) لهذه الغاية وهو يحمل رداً غامضاً من السلطان (يحمل توقيع رؤوف باشا).

---

(١) يـوسف مملوك: يهودي مرتد، كان أسيراً لدى باي تونس، ووقع في غرام ابنة هذا الداي، وعندما اكتشف امره، هرب الى الجزائر، ثم التحق بالجيش الافرنسي، واصبح من المغامرين فيه. وأصبح جنرالاً كبيراً فيه، وكان له دور خطير في احتلال قسنطينة، وزعم انه ابن غير شرعي لنابليون الأول، وانه من جزيرة (البا) «تاريخ الجزائر الحديث ـ الدكتور ابو القاسم سعد الله ص ١٣٣ ـ ١٣٤».

(٢) جـاء في (تاريخ الجزائر الحديث ـ الدكتور ابو القاسم سعد الله ـ حاشية صفحة ١٣٥) ما يلي: «هرب سي احمد بأموال الحاج احمد. وقد اكرمه الامير ـ عبد القادر ـ ثم كواه بالنار عندما اكتشف انحرافه ـ ففر من عنده ايضاً الى الافرنسيين».

وكان هذا الرد يذكر: «بان السلطان في حالة سلم مع الدول المسيحية، وانه لا يستطيع اعلان الحرب على فرنسا بسبب قضية الجزائر، أو بالاحرى قضية قسنطينة، ولكنه طلب من الحاج أحمد متابعة جهاده ضد الافرنسيين، وألا يوقع صلحاً معهم إلا بعد استشارته». غير أن الحاج احمد لم ييأس. فأرسل وفداً آخر الى السلطان (برئاسة السيد بلهوان) الذي كان يحمل رسالة الى الصدر الأعظم -رئيس الوزراء- (رؤوف باشا). وألح الحاج أحمد في رسالته على طلب المساعدة المادية، وأعلن انه مستعد للتضحية من أجل الدين، وأن الافرنسيين يقتربون منه يوماً بعد يوم. ولكن (رؤوف) هذا استقبل بلهوان استقبالاً فاتراً، ووعده بارسال مندوب عنه الى قسنطينة لتقصي حقائق الموقف، فكان هذا المندوب هو (كامل بك). ولكن، وقبل وصول (كامل بك) كانت هناك الاتصالات قد استؤنفت بين الحاج أحمد وبين القائد العام الافرنسي في الجزائر (الدوق دو روفيغو) للتفاوض، حيث قام (حمدان بن عثمان خوجة) بنقل رسالة من الدوق الى الحاج (في صيف سنة ١٨٣٢ م) تتضمن اعلان (الحاج احمد) استسلام بلاده لفرنسا، ودفع ثلاثة ملايين فرنك ضريبة حرب، ودفع اللازمة السنوية -الجزية- وذلك مقابل اعتراف فرنسا بالحاج احمد (باياً) على اقليم (قسنطينة). وجمع (الحاج أحمد) أعيان المدينة، بحضور خوجة، وأطلعهم على رسالة الدوق، وبعد المناقشة استقر رأيهم على دفع اللازمة، بشرط أن تعيد فرنسا الأراضي التي احتلتها من الاقليم، ولا سيما ميناء عنابة، وإقامة قنصل فرنسي في عنابة، وإعلام القائد العام الافرنسي بعدم قدرة الاقليم على دفع ضريبة الحرب، وإبقاء ذلك كله مرهوناً بموافقة السلطان وارادته حيث



المدفعية الإسلامية في الدفاع عن قسنطينة

Raffet. Batterie Couverte Servie Par les Musulmans Lors De La Resistance De Constantine

يجب على الافرنسيين الاتصال به مباشرة. وحمل (خوجة) رأي أعيان قسنطينة إلى الدوق، ثم رجع برسالة أخرى تحمل الشروط التالية: «دفع (٥٠) ألف دورو، واللازمة السنوية، وتعهدت فرنسا بالحصول على القفطان للحاج أحمد من استانبول، ولكنها تبقي حامية عسكرية في كل من عنابة وقسنطينة، ويظل ميناء عنابة في قبضتها» ولكن الحاج أحمد لم يقبل هذه الشروط، وأحال الإفرنسيين على السلطان العثماني.

وصل موفد استانبول (كمال بك) الى قسنطينة عند هذه المرحلة، واستقبله الحاج أحمد استقبالاً حاراً. وفي اجتماع عام لأعيان المدينة ورؤساء القبائل والمسؤولين، خطب كمال بك، وقال بأن: «السلطان لم ينسهم، وأن عليهم بالصبر والايمان، وقال ان السلطان يعمل على ابقاء اقليم قسنطينة تحت طاعته، وأن عليهم أن لا يقبلوا أي شرط بدون موافقته». وقد تأكد (كمال بك) على تعلق البلاد بالحاج أحمد، وعرف أن الرسائل التي ترد إلى استانبول من باي تونس لا تستند على الواقع، وعاد كمال الى استانبول، وكتب الى الحاج أحمد يعلمه أنه أطلع السلطان على الوضع، وأنه يعمل للوصول الى حل لصالح الباي، ولكنه لم ينجح، وطلب منه أن يراسل السلطان عن طريق (سي الطاهر باشا) الذي أصبح حاكماً لطرابلس.

علم الحاج أحمد بعد ذلك أن القيادة الافرنسية قد حشدت قواتها في عنابة للقيام بحملة كبيرة ضد (قسنطينة) مستفيدة من فصل الشتاء (سنة ١٨٣٦ م). فخرج الحاج أحمد بقواته من عاصمة الاقليم وسار بها مسافة نصف يوم، وأقام معسكره عند مكان يدعى

(وادي الكلاب). وكانت قواته تضم (٥) آلاف فارس و(١٥٠٠) من الرماة المشاة. وقد التقى الجيشان في مكان يسمى (عقبة العشاري). فتظاهر (الحاج احمد) بالتراجع إذ شهد التفوق الكبير لقوات عدوه، غير انه لم يتوقف عن الاشتباك بهم واستنزاف قدرتهم وتكبيدهم الخسائر حتى دخل (قسنطينة). ونصب الافرنسيون مدافعهم على جبل المنصورة وسيدي مبروك الذي يشرف على المدينة وبدأوا في قصفها. كان الجيش الافرنسي بقيادة كلوزول. وكان الثلج والمطر يهطلان بغزارة. وحاول الافرنسيون ارغام المدينة الباسلة على الاستسلام، غير انهم فشلوا في محاولتهم، واضطروا الى التراجع عنها وانطلق الحاج احمد على رأس جيشه فطارد الافرنسيين حتى (قالمة). وفي طريق عودته الى قسنطينة، وجد عربات محملة بالمواد التموينيه التي خلفها الافرنسيون وراءهم. وقد كان لهذا الانتصار وقع كبير في رفع الروح المعنوية للمجاهدين ومواطني قسنطينة، كما أدى الى عزل كلوزول واستدعائه الى فرنسا. ورجع الحاج احمد الى المدينة بعد انتصاره الكبير، وبدأ على الفور باعادة تحصينها والاستعداد للجولة التالية، إذ كان على ثقة بانه لا بد للسلطات الافرنسية من اعادة المحاولة والانتقام لهزيمتها السابقة. وعلم (الحاج احمد) بوجود فئة كانت ترغب في تسليم المدينة الى الافرنسيين أثناء عملية القصف، فحكم على بعضهم بالاعدام. ثم ارسل الى السلطان يعلمه بانتصار المسلمين ويطلب دعمه. وفي الوقت ذاته، أبرزت هذه الاعمال القتالية كفاءة اثنين ـ بصورة خاصة ـ من قادة الحاج احمد، وأكدت قدرتهما واخلاصهما وهما (ابن عيسى) الذي أصبح رمزاً للمقاومة البطولية و(البجاوي) الذي أصبح خليفة (للحاج

أحمد). وكان مما زاد المقاومة ضراوة وعناداً، اعلان الافرنسيين عن ارادتهم بتعيين (يوسف المملوك) باياً على قسنطينة، بينما كان أهل قسنطينة يعرفون أن (يوسف) هذا لم يكن مملوكاً فقط، وانما كان أيضاً يهودياً مرتداً.

علم (الحاج أحمد) عن طريق مبعوث من استانبول بارسال مساعدات لدعمه، وقد حمل اليه هذا المبعوث (صراف افندي) معلومات عن ارسال حاكم طرابلس (سي الطاهر باشا) اعلاماً الى السلطان يخبره عن انتصار قوات قسنطينة على الافرنسيين، مما دفع السلطان الى ارسال دعم سريع- في ربيع سنة ١٨٣٧ م، عن طريق تونس، ولم يمض على انتصار (الحاج احمد) أكثر من اشهر قليلة، فارتفعت الروح المعنوية في صفوف المقاومة. ووصلت أربع سفن عثمانية الى ميناء تونس وهي محملة بالجنود الاتراك مع اثني عشر مدفعاً ومائة وخمسين مدفعياً. غير أن (باي تونس) الذي كان مهدداً بالضرب من الاسطول الافرنسي اذا نزل الجنود العثمانيون فوق أرضه، أرسل الى القبطان العثماني، يأذن له بانزال المدافع فقط، أما الجنود فقد اعتذر لهم عن انزالهم. وأرسل (باي تونس) الى الحاج احمد يعتذر له عن موقفه ويعلمه انه يرغب في اقامة علاقات ودية مع الافرنسيين. وهكذا عاد الجنود الاتراك بسفنهم الى قواعدهم في تركيا، واستخدم (باي تونس) المدافع التي كانت مرسلة الى حامية قسنطينة، وبقي (الحاج احمد) محروماً من الدعم في وقت كان هو أحوج ما يكون اليه.

حاول الافرنسيون استئناف المفاوضات مع (الحاج احمد) في حين كانوا يكملون استعداداتهم لغزوه في عاصمة اقليمه.

فاتصلوا أولاً باليهودي (ابن باجو) الذي كان يعمل في دار الحاج أحمد والذي كان يتاجر في (تونس). وكان القائد العام الافرنسي عندئذ هو (دامر يمون) بعنابة قادماً من الجزائر استعداداً للحملة المرتقبة. ورفض الحاج احمد اقتراحات الافرنسيين، وخرج لقتالهم في مكان يدعى (بلاد عمر). وهناك ارسل اليه (دامر يمون) يهودياً آخر هو (بوجناح) الذي كان يعمل في زي افرنسي، عارضاً عليه دفع مليونين من الفرنكات (ضريبة حرب) واقامة حامية افرنسية في قصية قسنطينة، وذلك مقابل أن تعترف به فرنسا (باياً) على الاقليم فيما وراء (مجاز عمار) أي باستثناء الاجزاء التي كانت فرنسا قد نجحت في احتلالها. غير أن علماء قسنطينة وأعيانها ورؤساء القبائل فيها رفضوا الشروط الافرنسية. وأرسل الحاج أحمد رفضه الى (دامر يمون) عن طريق (بوجناح). ولم يلبث هذا أن عاد وهو يحمل شروطاً أخرى، ولكن الحاج رفضها، وأرسل رفضه في هذه المرة مع كاتبه لأنه لم يعد يثق باليهودي (بوجناح).

كانت الادارة الافرنسية في الجزائر قد عقدت في تلك السنة معاهدة مع الامير عبد القادر- الجزائري- وأصبح باستطاعتها تركيز ثقل قواتها للعمل ضد (الباي الحاج أحمد). وعندما فشلت مفاوضاتها معه، عرف ان المعركة مع الافرنسيين قد باتت وشيكة الوقوع، فأخذ في الاستعداد للقتال، وجمع شيوخ القبائل والقادة، وحشد (٥) آلاف فارس و(ألفين)من المشاة الرماة من المجاهدين بالإضافة الى جيشه النظامي الذي كان يعمل تحت قيادته الشخصية، وترك في عاصمة الاقليم (قسنطينة) حامية صغيرة مكونة من (١٥٠٠) مقاتل وانطلق ببقية القوات لمحاربة الافرنسيين. فهاجمهم مدة ثلاثة أيام متواصلة في معسكرهم الواقع في (مجاز عمار).

ولكنه فشل في هذه المرة في صد زحفهم على المدينة. فقد تمكنوا من نصب الحصار عليها ثم دخلوها بينما كان المواطنون يحاربونهم من دار الى دار ومن شارع الى شارع. وأثناء هذه الجولة قتل (دامر يمون) القائد العام للجيش الافرنسي فتولى مكانه الجنرال (فالي)[1] كما قتل (البجاوي) خليفة الحاج أحمد في (قسنطينة) وتكبد الحاج أحمد خسائر كبيرة وفقد أفضل جنده ومقاتليه. وغنم الافرنسيون بعد استيلائهم على المدينة، مغانم كثيرة واموالاً ضخمة، ذلك لأن الحاج أحمد كان قد رفض اخلاء المدينة، كما رفض إخراج الثروات والكنوز الثمينة عندما طلب ذلك منه أعيان المدينة حتى لا يؤثر ذلك على الروح المعنوية، وتأكيداً على التصميم في القتال حتى النهاية، وهو ما حدث فعلاً. وخسر الافرنسيون بالمقابل اعتدتهم وقسماً كبيراً من قواتهم هذا بالاضافة الى تموينهم. وجاءت الضربة الحاسمة التي زادت من متاعب (الحاج احمد) عندما تخلى عنه صديقه (ابن عيسى) وساعده الايمن وعرض خدماته على الافرنسيين. ولكن، وعلى الرغم من الهزيمة التي نزلت بقوات (الحاج أحمد) وعلى الرغم أيضاً من ضياع ملكه وعاصمته، فقد صمم على متابعة الصراع المسلح، وعرضت عليه فرنسا الأمان، وتعهدت له بنقله الى بلاد اسلامية. فرفض العرض الافرنسي، ومضى يحمل السلاح وقد وضع مخططاً جديداً لمقاومة الافرنسيين يعتمد على تهديد خطوط مواصلات الافرنسيين بين عنابة وقسنطينة، وعزلهم. غير أن صهره (ابن غانة)

---

(١) فالي: (SYLVAIN - CHARLES - VALEE) ماريشال فرنسا. (١٧٧٣ـ ١٨٤٠ م) من مواليد بريين لوشاتو، وهو الذي قاد العمليات للاستيلاء على قسنطينة سنة ١٨٣٧ م).

اعترض على هذا المخطط، وأراده أن يحارب (فرحات بـن سعيد) أولاً، ثم الافرنسيين ثانياً. وهي الخطة التي عبر عنها الحاج احمد بقوله: «(الخطة التي فيها هلاكي) غير انه لم يكن يستطيع مقاومة اعتراضات صهره (ابن غانة) بعد أن تضافرت جميع العوامل ضده: «موت أو تخلي قادته عنه، وخلافه مع صهره بوعزيز الذي التحق بالافرنسيين فعينوه في منصب (شيخ العرب). وكذلك محاولة الامير عبد القادر بسط نفوذه على اقليم قسنطينة، بتوجيه نداء الى اعيانه، وتعيين خلفاء له فيه أمثال: حسن بن عزوز، وفرحات بن سعيد الذي لم ينس عزله له حتى بعد سقوطه على ايدي الافرنسيين، هذا بالإضافة الى جهود (باي تونس) المضادة له بسبب غيرته من (الحاج أحمد) والكيد له في وسط القبائل المجاورة ولدى السلطان، ثم فرنسا التي كانت ترى في وجوده بين العرب علامة خطر، فكانت تؤلب عليه القبائل، وتخلق له الصعوبات أينما حل وحيثما ارتحل. ويمكن أن يضاف الى ذلك سلبية السلطان العثماني الذي كان (الحاج أحمد) يعتمد عليه حتى بعد سقوطه» **وظل (الحاج أحمد) يقاوم كل هذه العوامل من سقوط قسنطينة (سنة ١٨٣٧) وحتى استسلامه (سنة ١٨٤٨) حيث كان ينتقل طوال هذه الفترة من قرية الى قرية، ومن الجبل الى السهل. وبينما كان في (جبل أحمر خدو) اتصلت به السلطات الافرنسية في (باتنة) و(بسكرة) وعرضت عليه الاستسلام، وإعادة كل اشيائه اليه وأخذه ليعيش في بلاد اسلامية. فقبل العرض بعد أن كبرت سنه ووهنت قواه. وذهب من بسكرة الى باتنة في ٥ حزيران- يونيو- ١٨٤٨ م، ومنها الى قسنطينة عاصمة ملكه القديم، التي عاد اليها مجرداً من سلاحه، واستقبله أعيانها عند مدخلها، ودخل اليها وسطهم في كوكبة من الخيل.**

وأقام فيها ثلاثة أيام كان فيها محل رعاية خاصة. فكان أهلها يأتون إليه كل يوم بالأطعمة والألبسة وبعض مصنوعاتهم. ولكن السلطات الافرنسية خشيت العاقبة، فمنعت الاعيان من زيارته وقدمتهم الى المحاكم العسكرية. ثم نقلت (الحاج احمد) الى العاصمة عن طريق (سكيكدة). وهناك عينت له أحد المترجمين لمرافقته (وهو الضابط دي روزي) وعينت له ولأهله داراً لاقامته، وخصصت له مبلغ (١٢) ألف فرنك فرنسي سنوياً لتغطية نفقاته. غير انها لم تنفذ وعدها باطلاق حريته، فبقي سجيناً- تحت الاقامة الاجبارية حتى وافقته منيته في الجزائر (سنة ١٨٥٠ م) ويوجد قبره الآن في زاوية (سيدي عبد الرحمن الثعالبي) وسط مدينة الجزائر، ولعل موته لم يكن طبيعياً.

* * *

حاول (الحاج احمد) اقامة دولة تعتمد على تأييد السلطان العثماني، وتأييد الارستقراطية المحلية فحافظ على النظام العثماني، وطلب مساعدة السلطان حتى يعطي لحكمه الهيبة والشرعية. وحاول بعد احتلال الجزائر توسيع قاعدة حكمه بتأييد الجماهير له، فكان لا يقرر شيئاً هاماً إلا بالرجوع الى العلماء والأعيان وشيوخ القبائل وقادة الجيش، واذا كان قد اعتمد في بداية أمره على الجند العثماني، فانه لم يلبث بعد الاحتلال أن غير رأيه وتخلص من هذا الجند، معتمداً على العرب الذين أراد أن يشكل لهم دولة يكونون هم سادتها. ولم يحاول (الحاج احمد) أن يوسع سلطانه حتى يشمل الجزائر كلها، فبقي مكتفياً، سواء في مفاوضاته مع الافرنسيين أو في مراسلاته مع السلطان العثماني بحدود اقليمه (قسنطينة) خلافاً لما كان يعمل له (الأمير عبد القادر) أو حتى

(مصطفى بومزراق - باي تيطري) الذي اخذ لقب (الباشا) وطالب الاعتراف به سيداً على الجزائر كلها.

لم يتمكن (الحاج احمد) من الاتفاق مع (الامير عبد القادر) لأنه كان يرى فيه (دعياً أو منتحلاً للسلطة). وزاد من شك الحاج احمد في الأمير أن هذا قد وقع اتفاقات مع الافرنسيين (معاهدة ري ميشان- ١٨٣٤- ومعاهدة تافنة سنة ١٨٣٧ م). وبعد اتصال الأمير بقبائل (قسنطينة) أثر المعاهدة الأخيرة وإخطارهم أنه متفق مع الافرنسيين أحس الحاج أحمد بالشك فيه والخوف منه. لا سيما وقد هدده الأمير عبد القادر بأنه سيهاجم قسنطينة مع الافرنسيين اذا لم يستسلم له (الحاج احمد). وزاد من اتساع شقة الخلاف بينهما أن الافرنسيين كانوا يعملون على اثارة الرجلين ضد بعضهما البعض. والواقع أن (معاهدة تافنة) التي جاءت بعد فشل المحاولة الاولى لاحتلال قسنطينة سنة ١٨٣٦، كانت مساعدة على نجاح الافرنسيين في المحاولة الثانية، فقد أطلقت أيديهم في شرق البلاد. وتذكر بعض المصادر، أن الأمير عبد القادر كان على علم بخطة الافرنسيين نحو قسنطينة، غير انه لم يتدخل لأنه كان يعتقد أن نجاحها سيزيل عنه منافساً خطيراً.

وكان للحاج أحمد رأي في اليهود الجزائريين، فقد قال عنهم: «**إنهم هم الذين عكروا دائماً الشؤون السياسية التي تدخلوا فيها، فهم لا يحاربون، ولكن مصلحتهم هي دائماً في رؤية الآخرين ممزقين. انهم كالذئاب التي تأتي لتأكل ما خلفته الأسود**».
ودافع عن نفسه في التفاوض مع اليهودي القسنطيني (ابن باجو) لأن الافرنسيين هم الذين أرسلوه اليه. أما (بوجناح) الذي جاءه في (زي

افرنسي) مبعوثاً من القائد العام (دامر يمون) فقد قال عنه أنه: «**لم يكن ينتظر منه الخير، وأن القائد العام لم يحسن الاختيار، لأن بوجناح قد شكر الحاج احمد على رفض الشروط الافرنسية، وأخذ في ذمهم أمامه لأنهم: يريدون التوسع بكل الامكانيات فاليوم يطالبونك بهذا، وغداً سيطالبونك بشيء آخر**» وقد طلب (بوجناح) النقود من الحاج أحمد ليذهب الى باريس، ويتفاوض باسمه مباشرة مع الحكومة الافرنسية. وكاد الحاج احمد يضربه (**لولا أنه مبعوث القائد الافرنسي**) وذلك عندما اقترح عليه ضرب كبار رجاله اذا لم يرضوا بشروط فرنسا. وقد علم (الحاج احمد) ان اليهود قد نهبوا الأشياء الثمينة التي (يعرفون أماكنها السرية) عند دخول الجيش الافرنسي الى مدينة قسنطينة. وقد سبقت الاشارة الى موقفه من (يوسف المملوك الذي كان مرتداً والذي حاول الافرنسيون تعيينه بايا على قسنطينة خليفة (للحاج احمد).

لقد خاض (الحاج احمد) صراعه في ظروف صعبه للغاية، وقد علق آماله على السلطة العثمانية التي كانت تتعرض بدورها للمحن والهجمات والضغوط الثقيلة، وقد حفظت الوثائق التاريخية رسائل (الحاج أحمد) أو (بعض رسائله) والتي تبرز طبيعته الصراع الذي خاضه خلال تلك (المرحلة التاريخية)[1].

ز ـ حمدان خوجة والصراع السياسي:

ظهرت خلال فترة احتلال فرنسا للجزائر مجموعة من الشخصيات البارزة التي مارست ادوارها بصورة افرادية، بفضل ما

---

(١) انظر قراءات ـ ٥ ـ الملحقة في آخر هذا الكتاب في موضوع رسائل الحاج أحمد.

توافر لها من الخبرة والثقافةوالمكانة الاجتماعية. وهذه المجموعة هي من النوع الذي يمكن وصفه (بالمعتدلين) أو(الواقعيين) والذين حاولوا التحرك في اطار الظروف الزمنيةوالمكانية ضمن مفهوم (انقاذ ما يمكن انقاذه). وظهر بعضهم وهو يحاول اقامة علاقات مع فرنسا لمصلحة الاسلام ولمصلحة الجزائر المجاهدة. غير ان هؤلاء لم يلبثوا أن سقطوا تباعاً، ذلك أن أرضيتهم الدينية والقومية والوطنية تجعلهم بصورة حتمية يقفون في النهاية في الصف ـ أو في الخندق ـ المعادي للاستعمار. وقد يكون من المناسب، إكمال صورة الموقف باستقراء الملامح العامة لبعض هذه الشخصيات وجهادها خلال مرحلة التحول الحاسم في حياة الجزائر.

١ ـ حمدان عثمان خوجة:

كان حمدان عثمان خوجة، منسوباً الى حضر الجزائر، تاجراً كبيراً، ومالكاً غنياً من أثرياء مدينة الجزائر وكانت له أراضي في سهل(متوجة ـ متيجة) وله املاك في المدينة. وقد ولد في أواخر القرن الثامن عشر من أسرة لها مكانتها البارزة في الدولة. فكان عمه أمين السكة(أي مسؤول المالية) وكان والده استاذاً للقانون، ثم كاتباً من الدرجة الأولى للدولة. وقد مكنه ذلك من الحصول على ثقافة عميقة ومعرفة شاملة بشؤون الدوله والبلاد عامة، كما مكنه من السفر الى المشرق والى اوروبا للتعرف على احوال العالم القديم (الشرق) والجديد (اوروبا) وكان ذلك في وقت دقيق يشهد تغيرات جذرية في السياسة الدولية (مؤتمر فيينا) وفي التفكير الانساني نتيجة الثورة الصناعية.



طلائع المجاهدين بقسنطينة يراقبون الفرنسيين

كان حمدان عثمان خوجة في مدينة الجزائر عندما وقع الغزو الاستعماري الافرنسي، ويظهر أنه مارس دوراً خفياً في الدعوة الى اجتماع الحضـر الذين طلبوا الـى الداي الاستسلام. وكان محل ثقة الباشا (الداي حسين) الذي أرسله الى صهره (الآغا ابراهيم) ليقنعه باستئناف القتال بعد هزيمته في معركة (اسطا والي)، وكان ابنه حسن هو الذي صحب بوحزبة، وكاتب الباشا للتفاوض مع (دوبورمون) على شروط التسليم. ويظهر أن (خوجة) أصبح موضع ثقة (دوبورمون) الذي ولاه عضوية المجلس البلدي لمدينة الجزائر. واحتفظ خوجة بمكانته في عهد (كلوزول) الذي عينه في لجنة تقدير تعويضات الاملاك المصادرة، وأسند اليه دراسة مطالب اليهود من فرنسا لدفع تعويضات عن القروض التي كانوا قد دفعوها لى (الكراغلة) كما أصبح (خوجة) متولياً شؤون المراسلة بين (باي تيطـري بـو مرزاق) وبين السلطات الافرنسية. غير أن أسهمه لم تلبث أن تدهورت، حيث تآمر اليهود ضده ووقف في وجهه المسيحيون (بسبب موقفه غير المتسامح من احتلال المساجد) مما جعله في اعين الافرنسيين من الحاقدين عليهم. وكان ذلك سبباً في عزله من الوظائف التي اسندت اليه والتي قال عنها بانه قبلها لأنه لم يكن له الخيار.

حاول (الدوق دو روفيغو) إنصاف (خوجة) فأعاد اليه داره التي كان قد استقر فيها أحد الضباط الافرنسيين. وأرسله للتفاوض مع (الآغا محي الدين بن مبارك ـ مرابط القليعه) وكلفه بمهمة سرية لدى الحاج أحمد باي قسنطينه، فذهب مرتين الى قسنطينة (آب ـ اغسطس وتشرين الأول ـ اكتوبر) ١٨٣٢ م. ودامت رحلته حتى

كانون الأول ـ ديسمبر ـ من السنة ذاتها محاولاً اقناع الباي باقتراح الدوق، وهو الاعتراف بالسيادة الافرنسية، ودفع جزية سنوية لفرنسا. ثم توترت العلاقات بين (خوجة) وبين (الدوق) فنفاه من الجزائر. كما عمل اليهودي (بكري) على اغراق (خوجة) بقضايا ماليه شائكة جعلته يتابعها لدى مجلس الدولة في فرنسا.

اجتمعت فئة (المنفيين الجزائريين) في العاصمة الافرنسية في ايار (مايو) ١٨٣٣ م حيث تولى (خوجة) قضية الدفاع عن الجزائر وشرحها للرأي العام الافرنسي والعالمي. وكان للضغط الذي قامت به فئة المثقفين الجزائريين المنفيين في باريس الفضل في تحرك البرلمان الافرنسي وتشكيل اللجنة الافريقية. وفي الشهر ذاته أرسل (خوجة) مذكرة الى مجلس الدولة الافرنسي عن حالة الجزائر. وفي ٣ حزيران ـ يونيو ـ أرسل مع ابراهيم بن مصطفى باشا مذكرة طويلة الى المارشال (سولت) وزير الحربية، واقترح فيها بعض مطالب الجزائريين. وتشكيل لجنة تحقيق، وفي ٩ تموز ـ يوليو ـ أرسل خلاصة للمذكرة الى الحكومة الافرنسية، وفي ١٠ منه أرسل نسخة من المذكره ورسالة الى الملك الافرنسي، وناشده التدخل في الجزائر. وبعد أن تكونت اللجنة أصبح (خوجة) صوت الجزائريين الذين فوضوه ليتحدث باسمهم. ولذلك رفع في ٦ أيلول ـ سبتمبر ـ رغبات الجزائريين الى الملك الافرنسي، وقد ألح فيها على شيئين: الحرية والاستقلال والتمتع بالحقوق التي يتمتع بها الأوروبيون. ثم كتب كتابه (المرآة) لتنوير الرأي العام. وكان الكتاب جاهزاً تقريباً منذ تموز ـ يوليو ـ ١٨٣٣. غير أن خوجة لم ينشره انتظاراً لتحسن الأوضاع وظهور نتائج اللجنة الافريقية، غير أنه قرر نشره في تشرين

الأول ـ اكتوبرـ وأرسل منه نسخة مع رسالة الى اعضاء اللجنة المذكوره. وينص المؤلف أن (المرآة) سيكون جزئين يتناول في الأول الجزائر في العهد العثماني وادارة بورمون وكلوزول، ويتناول في الثاني ادارة برتزين وبيشون، ولكن لم يظهر منه سوى الجزء الأول.

لقد خاب أمل (خوجة) في (اللجنةالافريقية) التي لم تحقق ما كان يريد. وقد عرضته آراؤه في (المرآة) الى المحاكمات بدعوى التشهير بالغير. ولم يقبل أي طلب استئناف حتى الذي تقدم به أمام مجلس الدولة. ومن جهة اخرى عاد كلوزول الذي كان ساخطاً عليه، حاكماً عاماً على الجزائر سنة ١٨٣٥. وقد أصدر (كلوزول) قراراً في ٢٦ ايلول (سبتمبر) ١٨٣٦ بطرد (حسن بن حمدان خوجة) من الجزائر بدعوى انه كان من المتآمرين على فرنسا. أما ابنه الآخر (علي) الذي كان قد صحبه الى فرنسا، فقد عاد الى الجزائر في شهر آذارـ مارسـ ١٨٣٩. وأما (خوجة) نفسه فقد ذهب الى (استانبول) حيث ظل على اتصال (بالحاج أحمد باي قسنطينة) يترجم له رسائله الى التركية، ويطلع السلطان على احوال الجزائر.

لقد كان كتاب خوجة (المرآة) وثيقة من أغرب وأغنى وثائق التاريخ الجزائري الحديث . وبرزت فيه مجموعة من النقاط أبرزها:

١ـ اثباته ان عدد سكان القطر الجزائري كان عند الاحتلال عشرة ملايين، وكان السيد حمدان هو المدير الثاني لمصلحة الضرائب في الحكومة الوطنية الجزائرية، ولهذا فان معلوماته أكثر

دقة من كل البيانات التي صدرت عن المصادر المختلفة ـ الافرنسية الاستعمارية خاصة ـ.

٢ـ انه سجل اعمال اللصوصية والنهب التي قام بها الجنود الافرنسيون. وصور أبشع الصور لتلك المنكرات التي فعلها الادنياء دون حياء أو خجل، وبعث بوثيقة افرنسية على يد محضر افرنسي، ان الافرنسيين كانوا يسرقون عظام موتى المسلمين من المقابر الاسلامية، ويرسلون بها ضمن عظام الحيوانات لمعامل تكرير السكر بمرسيليا.

٣ـ بيانه عن الاملاك والارزاق المصادرة، والمظالم التي ارتكبها الطغاة أثناء الاحتلال. لقد كان (حمدان عثمان خوجة) في طليعة المطالبين بتشكيل لجنة تحقيق للنظر في المظالم التي انزلها الافرنسيون بالجزائريين، وعندما تشكلت (اللجنة الافريقية) وجاءت الى الجزائر، استدعت اليها (خوجة) في جلستها الرابعة عشرة، وظهر (خوجة) وكأنه متهماً بقضية لا مدافعاً عنها، حيث قال له رئيس اللجنة: «بان اللجنة تعرف أمر الكتاب الذي وضعه عن الجزائرـ المرآةـ وان الكتاب يحتوي على قضايا ليس من شأن اللجنة ان تتدخل فيها، وعلى شكاوى شخصية ستنال حقها من العدالة. وطلب منه الاجابة على الامور العامة. وعلى ما أراد أن يطلع عليه الرأي العام. واتهمه بان أكثر ما جاء في الكتاب خال من البراهين. ودعاه الى تقديم البراهين إذا كانت لديه. وبناء على محضر الجلسه فان خوجة قد أجاب بأنه ليس لديه لا حقائق ولا براهين...». غير أن رئيس اللجنة لم يلبث «أن طمأن (خوجة) على أن الأمور التي اشتكى منها ستنال نصيبها من الاهتمام والعناية. فالمساجد التي

احتلتها السلطات الافرنسية ستعاد الى ما كانت عليه، وستحترم الملكية في المستقبل، وستدفع الاجور، لأن هدف الحكومة الافرنسية هو تطبيق نفس العدالة المطبقة في فرنسا على الجزائر».

ثم سأل رئيس اللجنة وهو يستجوب (خوجة) عن رأيه: «في ما اذا كان يعتقد أن تطبيق مبدأ اعادة الاملاك سيحقق الازدهار للمناطق التي احتلتها فرنسا في الجزائر. كما سيؤدي الى استمالة الجزائريين الذين عارضوا حتى الآن الوجود الافرنسي، والذين هم بلا شك قد أقاموا معارضتهم نتيجة للشكاوى التي نشرها ـ خوجة ـ في كتابه، والتي بالغ فيها» وعلى الرغم من أن محضر اللجنة قد اختصر اجابة خوجة على هذا الموضوع، فانه قد عبر عن اعتقاده بأن النتيجة التي توقعها رئيس اللجنة لن تتحقق بسرعة، لأن نظام العدالة المشار اليه قد يفيد أهل المدن ـ على ما ذكره خوجة ـ غير ان لن يحقق الا القليل من الفائدة لابناء الريف.

كان من رأي خوجة ـ والذي أدلى به امام اللجنة الافريقية «بان فرنسا لن تجني شيئاً من محاولتها اغراء الجزائريين باحلال النظام الافرنسي محل النظام التركي الاسلامي، أو التظاهر باحترام الدين والمعتقدات، وقد سأله رئيس اللجنة ما اذا كان يعتقد بان احترام الدين وحماية السكان وعدل الحكومة الافرنسية الصارم قد يوفر للمواطنين فرصاً مغرية لم تكن متوافرة لهم زمن الاتراك» فكانت اجابة ـ خوجة ـ واضحة، إذ أنه عبر بهذه المناسبة وبمناسبات اخرى على انه من المحال التعايش بين الجزائريين والافرنسيين في كل شيء.

٢ ـ أحمد بو ضربة:

كان أحمد بوضربة من حضر الجزائر أيضاً، غير أن دوره لم يكن واضحاً بقدر ما كان دور (حمدان عثمان خوجة). وقد عرف عنه انه كان من التجار الميسورين في الجزائر، ومن الذين لم يكونوا على علاقة جيده مع الحكام الاتراك. غير انه كان راضياً بوضعه على الاقل، فأقام فترة من حياته بمدينة (مرسيليا) حيث مارس التجارة فيها، وتزوج من افرنسية، ثم تورط هناك بقضية افلاس مالي حملته على مغادرة مرسيليا والعودة الى الجزائر، وخلال هذه الفترة تعلم اللغة الافرنسية، وعرف عادات الافرنسيين وتقاليدهم. حتى اذا ما غزت فرنسا الجزائر، ووصلت الى العاصمة، ظهر (احمد بوضربة) في مقر (الكونت دوبورمون) قائد الحمله بصحبة (حسن بن حمدان بن عثمان خوجة) ومعهما كاتب السلطان للمفاوضة على تسليم المدينة. مقتنعاً بما اعلنه الافرنسيون: «من أنهم جاؤوا محررين للجزائريين من الاضطهاد التركي». وتوطدت العلاقات منذ هذا اللقاء بين قائد الحملة و (بوضربة). فكان القائد الافرنسي ـ دوبورمون ـ يستشيره في أمور الجزائر الداخليه ويثق به، حتى انه ولاه رئاسة أول مجلس بلدي في (مدينة الجزائـــر)[1] غير

---

(١) شكل (دوبورمون) في اليوم التالي للاحتلال (٦ تموز ـ يوليو) لجنة حكومية افرنسية بمهمة ادارة البلاد. وتشكيل (هيئة مركزية) من الجزائريين برئاسة (أحمد بوضربة) وعضوية (الحاج علي بن أمين السكة، وابن مرابط، وابراهيم بن المولى محمد وحسن قلعايجي ومحمد ابن الحاج عمر والحاج قدور بن عشاش) ثم انضم اليها اليهوديان (ابن بكري وابن دوران). وكان معظم هؤلاء من (حضر الجزائر) حيث كانت السلطة الافرنسية تعتقد بان هذه الفئة من الفئات التي يمكن الاعتماد عليها نظرا لأنها لم تكن ذات شأن ايام الحكم التركي. ولكن سرعان ما أدرك الافرنسيون خطأ اعتقادهم، فاتهموا (الحضريين) بالتآمر والطموح. ونفوا زعماءهم من مدينة الجزائر.

أن (بوضربة) أدرك بسرعة أهداف الافرنسيين من احتلال الجزائر، ووقف على اساليبهم الخادعة، فأخذ في المكر لهم والايقاع بهم، ومبادلتهم خداعاً بخداع. مما حمل مؤرخاً فرنسياً على وصفه بقوله: «كان بوضربة رجلاً فطناً ومهذباً، واسع الدهاء، غير انه يفتقر الى المبادىء الاخلاقيه، فكان يخلق المشاكل أكثر مما يسهم في ايجاد حل لها». ولم يلبث الافرنسيون أن اتهموه بانه كان يتزعم (لجنة المغاربة) التي كانت تعمل لصالح استعادة الحكم الاسلامي في الجزائر، والتي كانت على اتصال مستمر مع الداي السابق (الباشا حسين). ولم تلبث أسهم (بوضربة) أن تدهورت، شأنه في ذلك شأن جميع الحضريين أمثاله، الذين رأى فيهم الافرنسيون مصدر خطر على الاحتلال الافرنسي، فتم ابعاد بوضربة الى باريس مع من تم إبعاده من (لجنة المغاربة) وهم الذين لفتوا اليهم الانظار بمظهرهم الجزائري ـ الافريقي، وباتصالاتهم مع رجال الصحافة والصالونات والبرلمانيين. على كل حال، فقد كان هناك ثمة اختلاف بين (بو ضربة) وبين (حمدان عثمان خوجة) ويعرض (بو ضربة) في مذكراته (بحمدان خوجة) ويصفه: «بانه من الذين حملوا أقلامهم لاستعمالها في هجمات شخصية» ويفخر بنفسه فيقول: «بأنه ليس من هذا النوع، وأنه ينظر الى الامور نظرة واقعية، وانه يتحرى الحقيقة، وانه يعمل لصالح مواطنيه ولفرنسا في نفس الوقت، وقد ظهر (بوضربة) أيضاً امام (اللجنة الافريقية) في ٧ تموز ـ يوليو ـ ١٨٣٣ م. فكتب اليها مذكرة، وتبرز هذه المذكرة التناقض بين الرجلين (بو ضربة ـ وخوجة) فبينما كان (خوجة) ثائراً على الافرنسيين، غير مؤمن بالتعاون معهم، يظهر (بو ضربة) وهو ينتقد الأوضاع، غير انه يقترح حلولاً

عملية لفائدة التعاون الافرنسي - الجزائري. ومذكرة (بو ضربة) مقسمة الى سبعة فصول تضم عناوين مثل: (التنظيم البلدي وتطبيق القضاء والعدل، والتنظيمات الخاصة بالمناطق الداخلية، وادارة المؤسسات الخيرية وغيرها). وقد اعتمدت (اللجنة الافريقية) على أفكار بوضربة «لانها- حسب تعبير رئيس اللجنة الافرنسي- لم تكن كلها تمنيات مثالية (يوتوبيا) بل ان الحكومة الافرنسية قد طبقت بعضها، ولا سيما الافكار الخاصة بالتنظيم القضائي والادارة البلدية».

وجه (بوضربة) نصائحه الى فرنسا بأن تتبع في الجزائر سياسة العدل والحزم المقترن باللين والاعتدال عند التعامل مع الجزائر، لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة التي تؤدي الى نتائج طيبة. ونصح كذلك بأن تتفادى فرنسا تطبيق نظام الاتراك في حكم الجزائريين، فتعتمد على البايات، باعتبار أن هذا التنظيم لا يتلاءم مع تنظيم الادارة المتبع في فرنسا. ومن آرائه- الجدلية- في هذا الموضوع اقتراحه بأن تعين فرنسا (آغا فرنسياً) على القبائل الجزائرية وليس (آغا) عربياً. ودافع (بوضربة) عن اقتراحه بأن الجزائريين يشكون في الآغا الذي هو منهم، إذا دافع عنهم امام الافرنسيين بخلافه اذا كان فرنسياً، فانهم لا يشكون في اخلاصه اذا دافع عنهم، فهم مثلاً لن يتهموه بأنه كان عميلاً لبلاده بخلاف العربي. وانتقد (بو ضربة) طريقة الاحتلال الافرنسي وقال: (أن أسوأ ما تميز به هو عدم اتباعه لنظام ثابت) وأنه «لم يضمن الحماية لأحد - حتى الذين ساندوه امثاله- فكانت النتيجة أن كل الذين كانوا مع الاحتلال قد تخلوا عنه. وأن الذين كانوا سيرحبون به لم تعد لديهم الجرأة للاعلان عن

شعورهم» وطالب بوضربة فرنسا: «بأن نعلن صراحة عن موقفها من القبائل التي خضعت لها، ومن تلك التي تريد الخضوع لها، ثم من تلك التي لا زالت تقاوم الاحتلال. فالتردد والغموض لا يزيدان الموقف إلا تعقيداً» وطلب من فرنسا ايضاً: «ان لا تعفي الأهالي من الضرائب ولكن تفرضها بعدل، وأن تعاقب المذنبين بحكمة».

واقترح (بوضربة) أن تدمج العرب في البيئة الافرنسية الجديدة: «عن طريق بناء القرى والمجمعات التي يستوطنها الافرنسيون على أن يسمح للعرب بالاستقرار في هذه المستعمرات مما يسمح بالتعارف بين المجموعتين، وتضمن للعرب الاطلاع على حضارة الافرنسيين، بالاضافة الى أن هذه الطريقة تنهي شيئاً فشيئاً مقاومة العرب لفرنسا» واقترح ايضاً: «انشاء جريدة - صحيفة - لبث الافكار وتنوير الرأي المحلي - لأن العربي في رأيه - فضولي بطبعه، وسوف يقرأ هذه الجريدة بشغف كبير. ولكنه نصح أن لا تحتوي الجريدة على مناقشة القضايا الدينية، لأن العرب عندئذ سينفرون منها. وبدلاً من الدين، يجب أن تناقش الجريدة، وتقدم معلومات عن الصناعة والفلاحة والمواضيع العلمية. وقال بوضربة في هذا الصدد أن كل جزائري تقريباً يعرف القراءة والكتابة، لذلك فان انشاء هذه الجريدة سيفتح آفاقاً جديدة أمام الجزائريين والافرنسيين معاً. وقال أيضاً: ان في كل قرية جزائرية مدرستين، باستثناء منطقة جرجرة التي لاحظ أن التعليم فيها منحصر في طبقة خاصة، وهي طبقة الشيوخ والرؤساء». وكان (بوضربة) يظهر متفائلاً حتى حدود الحماسة وهو ينادي «بإجراء تغييرات على النظام الافرنسي القائم عندئذ في الجزائر» فقد طالب بانهاء نظام العنف الذي كان قائماً والذي دام ثلاث سنوات «واستبداله بنظام آخر قائم على اللين

وحماية حرية المواطنين وممتلكاتهم. وعندئذ- بناء على رأيه- سيرى الافرنسيون ان النتائج ستكون مختلفة، إذ انهم لن يجدوا سخطاً أو مقاومة وانما سيجدون تعاوناً ورضى».

واعلن (بوضربة) أنه يقف في صالح عدة قضايا، من ذلك اقامة فرقة جزائرية (الزواف- أو الزواويين) للمشاركة في حماية البلاد، على شرط أن تؤدي الدور الايجابي المنتظر منها، وأن تتوافر لها شروط العمل الضرورية. أما بخصوص دمج اليهود في حياة الجزائريين العامة، فان (بوضربة) لم يمانع في ذلك، ولكنه الح على ألا يتم هذا الدمج على حساب العرب. وقال بأن على فرنسا أن تعطي الضمانات الكافية على ألا تنال الطائفة اليهودية في الجزائر شيئاً من مراكز النفوذ الكبيرة في البلاد. ويمكن الاعلان عن هذه الضمانات- بحسب رأيه- عن طريق اصدار بيان عام يوقع عليه علماء البلاد والمسؤولين عن الشؤون الدينية.

أما عن القوات التي كانت لدى الجزائر في تلك الفترة، فقد حاول (بوضربة) تهدئة مخاوف الافرنسيين من احتمال تجمع تلك القوات للقيام بالثورة. فقال لهم: «بان هناك ١٦ ألف رجل مسلح في مركز اسطاوالي، و٤ آلاف من القبائل الراجلين- من أهالي جرجرة- غير انه من المحال على هذه القوات ان تتجمع من جديد، واذن فلا خوف على الافرنسيين من اندلاع ثورة ضدهم».

ويبدي (بوضربة) بعض الآراء الهامة حول أملاك الدولة في (سهل متوجة- متيجة) فهو يقول ان دار السلطان (مدينة الجزائر وضواحيها بما في ذلك سهل متيجة) كانت تملك بين ١٢ و١٣ مزرعة في السهل المذكور، بعض هذه المزارع كان عن طريق الايجار.

وكانت هناك وزارة خاصة تقوم بادارة المزارع وتعهدها، وكانت كل مزرعة تحتوي ٦٠- ٨٠ زوج البقر. وكانت حدود ملكية كل قبيلة في السهل منظمة تنظيماً دقيقاً وثابتاً، ولذلك لم تكن هناك نزاعات بين القبائل على الحدود.

وقال (بوضربة) أن معظم سهل متيجة يعود الى سكان مدينة الجزائر، ولا سيما طبقة الحضر منهم. أما الأراضي المشاعة فلا توجد إلا في داخل الوطن التي هي منطقة قبلية تخضع لادارة الشيخ محلياً وادارة الدولة التي يمثلها القائد.

وهناك آراء اخرى غريبة عبر عنها (بوضربة) حول الوجود الافرنسي في الجزائر، فقد قال: «بأنهم اذا ارادوا الاكتفاء باحتلال السواحل والمدن، فانهم لن يحصلوا على نتيجة في الجزائر».- لذلك نصحهم- بأن يعزموا على البقاء الدائم في البلاد، وأن يكونوا لهم خلفاء من أهلها جتى تتوافر لهم شروط الاقامة. ونصحهم بانهم اذا احتلوا قسنطينة (وكان حديثه سنة ١٨٣٤ أي قبل ثلاث سنوات من الاحتلال الفعلي لقسنطينة). فيجب عليهم تعيين حاكم افرنسي عليها.

وقال ان عدد سكان (قسنطينة) عندئذ يتراوح بين ٢٥ و٣٠ ألفاً. وأن عادات هؤلاء وطبائعهم تختلف اختلافاً واضحاً عن عادات سكان الأرياف في الاقليم. ونصح الافرنسيين بان يتعرفوا، قبل القيام بأي توسع، على اخلاص حلفائهم الجزائريين. وبذلك يتفادون تعريض جندهم للخطر المحقق. غير أنه أشار عليهم بضرورة اعادة المساجد التي استولى عليها الجيش الافرنسي واستخدمها لاغراض خاصة.

خلاصة القول: كان (بوضربة) نموذجاً للمتعاونين المقاومين، المتعاونين مع السلطة الاستعمارية والمقاومين للمشاريع الاستعمارية. فأفادت منهم فرنسا خلال المرحلة الاولى ثم نبذتهم مرة واحدة والى الابد. حتى انه بات من الصعب معرفة المصير الذي انتهى اليه منذ سنة ١٨٣٤ أي بعد أربعة سنوات من عمر الاستعمار الافرنسي للجزائر.

٣ ـ المفتي الحنفي سيدي محمد بن العنابي:

عرف المفتي الحنفي العنابي بانه شخصية فاضلة ومحترمة من معاصريه، وقد هاله ما كان يجري في البلاد من ممارسات واعمال تتنافى مع شروط التسليم، وتتناقض مع مبادىء الثورة الافرنسية. لذلك كتب سلسلة من الرسائل الى الجنرال (كلوزول) يذكره فيها بنصوص الاتفاق الجزائري ـ الافرنسي، وينبهه الى العواقب المدمرة التي قد تجر اليها السياسة المتبعة آنذاك. وقد أرادت السلطات الافرنسية إبعاده من الجزائر، فاختلقت له سبباً، وهو أنه كان يتآمر ضد الدولة بالاتصال مع العرب، وأنه كان يعمل لصالح عودة الحكم الإسلامي الى الجزائر. وعلى اية حال فقد ألقى (كلوزول) عليه القبض وسجنه بعض الوقت ثم نفاه. ـ ويذكر خوجة ان اعتداءً شنيعاً قد وقع على عائلة العنابي أيضاً. ـ وحاول خوجة أن يفهم التهمة الموجهة الى صديقه العنابي فكان يذهب مرة اليه ومرة الى كلوزول ـ وقد أخبره هذا بأن المفتي كان على اتصال بالعرب وأنه كان يحاول اثارتهم ضد الافرنسيين لذلك ألقى عليه القبض. وعندما ذهب الى المفتي، نفى التهمة نفياً قاطعاً. وأخيراً عرف خوجة السبب ـ الذرائعي ـ وقصه بشيء من العاطفة. فقد زار

أحد مترجمي الجيش الافرنسي المفتي العنابي، وأعلن له أن (كلوزول) سيجلو عن الجزائر، وأنه ينوي تسليم مقاليد الحكومة اليك، فهل باستطاعتك أن تنظم جيشاً وأن تعد قوة تهدىء البلاد وتدافع عنها؟. فأجابه العنابي: «بأنه سيبذل جهده في التنظيم عندما يحين الوقت» ثم سأله المترجم: «وهل ستصلك الجنود من داخل البلاد، أو أنك ستعتمد على قواتك في مدينة الجزائر وحدها؟» فأجابه العنابي: «سأجند عندما يحين الوقت من المدن ومن جميع انحاء البلاد، وسيكون في استطاعتي أن أجند ثلاثين ألف رجل» ويؤكد خوجة أن المترجم المذكور قد أخفى شخصين ليشهدا على هذه المحادثة. وبهذه الوسيلة أوقع الافرنسيون بالمفتي العنابي في الفخ- على حد زعمهم- ووجدوا له حجة من أجل اقصائه عن البلاد. وقد حضر خوجة وطلب من كلوزول أن يمهل المفتي بعض الوقت حتى يبيع املاكه وينهي التزاماته. ولم يحصل له على عشرين يوماً إلا بشق النفس وبتقديم ضمانات شخصية. وخلال هذه الفترة استطاع أن يبيع عقاراته وأثاثه ويقضي حوائجه ليغادر الجزائر بعدها الى الاسكندرية. وقد كان اتخاذ مثل هذا الاجراء سبباً لاسكات السلطات التشريعية في البلاد كالقضاة ورجال الافتاء، لانهم لم يعودوا الى الاحتجاج على خرق شروط التسليم خوفاً من مصير كمصير المفتي العنابي.

٤ـ الادارة الافرنسية

وتكوين وحدات خاصة

تلك هي بعض النماذج للمقاومة في الجزائر، وقد كانت هذه النماذج، على ضعفها، وعلى عيوبها مصدر قلق للادارة الافرنسية فعملت على إبعادها ونفيها. وقد أصبح هذا الاسلوب من الاساليب الثابتة التي طبقتها الادارة الافرنسية في كافة العهود المتتاليه (من كلوزول الى دو روفيغو وحتى بيجو). وذلك بهدف السماح للاجهزة الافرنسية بممارسة عملها في اجراء كل التغييرات بعيداً عن كل شغب أو اضطراب يعود لاسباب اجتماعية أو سياسية بين المواطنين . والى جانب ذلك، حاولت فرنسا تجنب دفع النفقات الباهظة التي يتطلبها الاحتلال، وبقاء قوات افرنسية ضخمة، فعملت على انشاء وحدات وطنية- جزائريه- تتكفل الادارة الافرنسية بتأمين طعامها واقامتها ورواتبها. وقد اصطدم تشكيل هذه الوحدات في البداية بالكثير من المقاومة، غير ان القيادة الافرنسية لم تيأس، فاستمرت في محاولاتها، متبعة في ذلك ذات الاساليب التي كان يستخدمها الاتراك في تنظيم الوحدات الجزائرية. وبدأ (دوبورمون) بتطويع الجنود من المتطوعين من قبائل(زواوة)[1]حيث

(١) زواوة: (ZOUAOUA)

أكبر تجمع لقبائل جرجورة ـ ومن هنا ظهر او اشتق اسم(الزواف)[1] وتم تشكيل الفوجين الأولين بناء على أمر (كلوزول) الصادر في الأول من تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٨٣٠. غير أن أعمال الفرار من هذين الفوجين قد اخذت في التعاظم، فكان الجنود يهربون باسلحتهم واعتدتهم، وبلغ عدد الهاربين من الفوج الأول بتاريخ ١٥ شباط ـ فبراير ـ ١٨٣١ أكثر من ٢٢٠ رجلاً من أصل (٥٢٩) رجلاً. أما الفوج الثاني والذي لم يكن عدد أفراده قد تجاوز (٨٥) رجلاً فقد بلغ عدد الهاربين منه (٦٤ رجلاً) في التاريخ ذاته. ونتيجة لذلك تقرر دمج قوات الفوجين في فوج واحد[2] غير أن افراد هذا الفوج قد اظهروا باستمرار تعلقهم بقضيتهم الوطنية، ولم تتمكن القيادة الافرنسية من قهر تطلعاتهم أو إبعادهم عن تقاليدهم الاجتماعية أو إضعاف عاطفتهم الدينية. وتطورت ظاهرة الفرار، بحيث أن عدد المتطوعين بلغ في سنة ١٨٣٣ ـ بعد ثلاث سنوات وعندما وصلت اللجنة الافريقية الى الجزائر ـ ما قوته (١١٤٤) شخصاً لم يبق منهم في الخدمة الفعلية أكثر من (٣٦٣) جزائرياً.

لقد أرادت فرنسا توفير الدم الافرنسي، وخوض الحرب بمقاتلين يعرفون طبيعة الاقليم، ويقاتلون قومهم بدون أن تتكفل فرنسا بأكثر من نفقات زهيدة، فعملت بعد ذلك على تشكيل سريتين من الفرسان (السباهيين)، ثم طورت ذلك الى تشكيل فرق تضم المقاتلين المغامرين المرتزقة من كل الجنسيات والقوميات واطلقت عليهم اسم(اللفيف الاجنبي ـ أو الفرقة الاجنبية ـ ليجيون ايترانجيه).

---

(١) الزواف: (ZOUAVES).

(٢) مـن تقرير برتزين (BERTHEZENE) الى وزارة الحرب الافرنسية في ١٤ ـ آذار مارس ـ ١٨٣١ م.

٥ - الادارة الافرنسية

(من التردد الى التصميم)

اجتاحت القوات الافرنسية الجزائر، وظهرت نوايا الافرنسيين منذ البداية، فقد اخذت الاعمال العدوانية تمتد من المدن الى القرى، ومن الساحل الى الداخل، ورافق ذلك جهد لابادة الشعب الجزائري بالجملة، ولم تقتصر عمليات الابادة على اقليم معين، أو فئة من المواطنين، وكانت هناك خطة عسكرية واضحه ينفذها جيش الغزو بشن حرب متطرفة ذات طابع وحشي شاذ. ولم يعد الأمر مقتصراً على أعمال عسكرية في أيام محدودة، وانما أصبحت الجزائر كلها مسرحاً غارقاً بالدماء تشتعل فيه النيران باستمرار. ولم تميز قوات الغزو بين الاشخاص والممتلكات، فالحرائق والسرقات والتخريب تختلط بالقتل والتعذيب. وليس ثمة تمييز بين الرجال والنساء والاطفال والشيوخ. وادى ذلك الى بروز الهوة السحيقة التي فصلت منذ البداية بين المواطنين والمستعمرين. ولم يعد باستطاعة الافرنسيين معرفة المرتكز الذي يستطيعون الاعتماد عليه في ادارتهم للبلاد. فقد غادر معظم الاتراك البلاد، ولم يكن باستطاعتهم الاعتماد على العرب (المقيمين منهم أو الرحل). كما لم يكن باستطاعتهم الاعتماد على القبائل الجبلية الطموحة لحريتها، والتي

لا يمكن لها الخضوع للاجنبي. فكانت تلك أول عقبة جابهت الاستعمار.

خلال تلك الفترة الحرجة، اندلعت نيران ثورة تموز- يوليو- ١٨٣٠، فاطاحت بحكم ملك فرنسا (شارل العاشر) وحملت الى الحكم (لويس فيليب). وظهر خلال ذلك احتمال استدعاء جيش الغزو الى فرنسا، وترك البلاد التي فتحوها الى أهلها وساكنيها. وتم بالفعل ارجاع (الكونت دوبورمون) وبعض الضباط القادة من هيئة اركانه، بالاضافة الى اعادة بعض القوات. ولم يبق في الجزائر إلا قوات قليلة في عددها وعدتها، ضعيفة في قيادتها.

وفي الوقت ذاته، اخذت اوروبا في متابعة احداث فرنسا بقلق، خوفاً من عودة أيام الثورة الكبرى الى فرنسا، وندمت على انها لم تتدخل ضد فرنسا عندما قامت بغزو الجزائر، حتى لا تمتلك المقدرة والموارد المالية والمواد الأولية التي تضمن لها المزيد من القدرة القتالية اذا ما تجددت حروب على نمط (الحروب النابوليونية).وشعر سفير فرنسا في لندن (تاليران)[1] بمخاوف رجال السياسة الاوروبيين، فحاول طمأنتهم، ونصح حكومته بان تقوم بأعمالها في الجزائر بمنتهى الحذر والحرص والكتمان، وان

---

(١) تاليـران: (CHARLES MOURICES DE TALLEYRAND - PERI- GORD أميـر بينيفـان: (PRINCE DE BENEVENT) ديبلومـاسي افـرنـسي من مواليد باريس (١٧٥٤- ١٨٣٨ م) عمدة اوتون خلال أيام النظام الملكي، وأصبح رئيساً للمجلس الوطني سنة ١٧٩٠، ثم وزيراً للخارجية اثناء حكومة المديرين (ديريكتوار) ثم عضواً قنصلياً في آخر ايام نابليون. كان له دور كبير في اعادة الملكية الافرنسية، ومارس نشاطاً بارزاً في مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥. ثم عين سفيراً في لندن من قبل لويس فيليب واشتهر بخياله الخصب وامكاناته الكبيرة.

تتجنب اثارة الرأي العام الاوروبي ضدها. ومن أشهر برقياته في هذا الصدد: (**يجب أن لا تتكلموا أبداً عن الجزائر**).

حاول القادة الافرنسيون اثناء ذلك القضاء على المقاومة الجزائرية بالقوة، على نحو ما سبق ذكره في حملات الافرنسيين على (المديه) غير انهم فشلوا في ذلك وقادهم هذا الفشل الى استخلاص نتيجتين:

الأولـى: تجنب الاقدام على مغامرات غير محسوبة بدقة خشية تكرر الفشل.

والثانية: ان المقاومة في الجزائر لم تضعف بالقضاء على حكم الداي العثماني. وان السكان مصممون على الاستمرار في المقاومة (وهم أقوياء وشجعان ولديهم خبرات قتالية عالية).

ونتيجة لذلك، وأمام الظروف الدولية، تقرر اللجوء الى اتباع أساليب تبادلية تعتمد على المراوغة وكسب الوقت الى ان تتوافر ظروف أفضل. مع القيام باصلاحات ادارية تساعد على تحسين موقف الافرنسيين. غير انه كان من المحال تحقيق النجاح في هذه الاصلاحات، ذلك لان فرنسا كانت ترسل الى مستعمرتها فيما وراء البحار المغامرين من ضباطها وجنودها، وكانت تنظر الى هذه الممتلكات الجديدة نظرة الجشع، فكانت تريد استثمار الجزائر بأعنف الطرف وأقل المصاريف، ومعاملة الجزائريين بالعنف والقسوة. وادى ذلك الى زيادة المقاومة، مما حمل الساسة الافرنسيين على التردد، وطرح التساؤلات التي كان من أبرزها: **هل يجب البقاء في الجزائر أم لا؟ واذا كان لا بد من الاحتفاظ بها فما هي افضل طريقة لادارتها؟** وقد أجاب البارون ـ منتلبير ـ على هذين

السؤالين في قصر اللوكسمبورغ- فيٍ آذار- مارس- سنة ١٨٣١ بقوله: «**ان احتلال الجزائر هام جداً الى درجة ان الوزير الذي يجرؤ على توقيع صك الجلاء يستحق ان يحاكم بتهمة الخيانة العظمى**» وفي اليوم التالي أعلن ماريشال فرنسا (في ١٠ آذار- مارس) أثناء مناقشة الميزانية الحربية: «**ان الامر الحقيقي هو أن نحتل الجزائر، ولا يوجد أي مجال لأي اعتراض بأن الحكومة تفكر في الجلاء عنها**». وفي **١٩** شباط (فبراير) **١٩٣٢**- أعلن وزير الخارجيه الافرنسية- الدوق دو بروغلي -[1] «**لقد ظهر بعض القلق والحذر عما يشاع من وجود اتفاقات سياسية تمنع الحكومة من ممارسة ما تريده في الجزائر، وانا أؤكد لاعضاء مجلس النواب، بأنه لا يوجد أي تعهد مع أية دولة اخرى تجاه هذا الموضوع. وان فرنسا هي مطلقة الحرية بالتصرف في الجزائر بما يتناسب مع شرفها (؟) ومصالحها**».

غير انه كان من الصعب على الحكومة الافرنسية تجاهل مجموعة العوامل التي باتت تجابه الموقف. وظهرت فكرة ارسال لجنة تحقيق واجبها دراسة الموقف على الطبيعة، وإعداد تقرير يتضمن اقتراحات واضحة حول مستقبل البلاد. وكانت العوامل التي ادت الى تشكيل هذه اللجنة التي حملت اسم (اللجنة الافريقية) هي: ١- المناقشة الحادة التي جرت في البرلمان حول تخصيص ميزانية لمواصلة الحرب في الجزائر. ٢- الحماة التي قام بها بعض

---

(١) دوبروغلي: LEONCE VICTOR DUC DE BROGLIE وزير خارجية ايام الملك لويس فيليب (١٧٨٥- ١٨٧٠). وهو من عائلة مارست دوراً كبيراً في حياة فرنسا بسبب ما قدمته من القادة العسكريين ورجال السياسة والمال والعلماء- ويعود أصل العائلة الى (بييمونت).

الجزائريين المنفيين- وبصورة خاصه حمدان خوجة -ضد تصرفات الادارة الافرنسية في الجزائر. ٣- تهدئة ثورة الرأي العام الاوروبي المضاد لفرنسا وكسب الوقت. ٤- تحديد موقف رسمي من قضية الاحتفاظ بالجزائر أو التخلي عنها ٥.. دراسة الاساليب الممكنة والطرائق الناجعة لادارة الجزائر. وقد اصدر المارشال (سولت) تصريحاً اعلن فيه رسمياً: «ان الهدف من تشكيل اللجنة هو جمع المعلومات التي تساعد الحكومة على معرفة الموقف العام للجزائر في حاضرها ومستقبلها».

وافق ملك فرنسا (لويس فيليب)[1] على تشكيل هذه اللجنة في ٧ تموز- يوليو- ١٨٣٣ كما قرر الملك في الوقت ذاته أن تنضم هذه اللجنة بعد عودتها من الجزائر، الى لجنة اخرى (أكثر اتساعاً)

---

(١) لويس فيليب: (LOUIS - PHILIPPE I.ER) ابن فيليب - المساواة (PHILIPPE - EGALITE) ولويس دوبوربون- بانتيير؛ ولد في باريس سنة ١٧٧٣، وأصبح ملكاً لفرنسا سنة ١٨٣٠ حتى سنة ١٨٤٨ ومات في كلير مونت (CLAIRE MONT) في انكلترا سنة ١٨٥٠ م. وكان قد أسهم بدور كبير وحاسم في معركة فالمي (VALMY) على المارن والتي انتصر فيها الافرنسيون على البروسيين سنة ١٧٩٢ م. وكذلك في معركة جيماب (JEMMAPES) وهي القريه البلجيكية القريبة من ليبج والتي انتصر فيها ديمورييه أيضاً (DUMOURIEZ) على النمساويين سنة ١٧٩٢، وعاش بعد ذلك في المنفى حياة غامضة، ثم تزوج من ماري اميلي دوبوربون، وعاد الى فرنسا في عهد الملك لويس الثامن عشر، حيث نودي به قائداً عاماً للملكة، ثم ملكاً في ٧ آب- اغسطس- وساعده في البداية بعض الوزراء الليبيراليين، غير انه لم يلبث ان زاد في اعتماده تدريجيا على المحافظين وابعد عنه الليبيراليين. فقامت ضده حركة ثورية (عصيان) امكن له قمعها في ٥ و٦ حزيران- يونيو- ١٨٤٠ بعد ان استمرت منذ سنة ١٨٣٢ م. وقضى كذلك على كل الحركات المضادة التي قادها ضده النابوليون. واثار تحالفه مع انكلترا نقمة الشعب الافرنسي.

لاتخاذ القرارات المناسبة. وقد وصلت هذه اللجنة الى الجزائر يوم ٢-أيلول -سبتمبر- من السنة ذاتها. وبدأت عملها على الفور لتنفيذ تعليمات الحكومة التي حددت لاعضاء اللجنة مجموعة من التعليمات والنقاط التي ترغب الحكومة في معرفتها، والتي تتطلب منها ايجاد حلول للمشاكل الهامة التي كانت تواجهها الجزائر. كما اعطت الحكومة الى (اللجنة الافريقية) برنامج عمل مفصل تسير على ضوئه. وتبرز النقاط التي احتواها برنامج العمل المذكور أن الحكومة الافرنسية قررت مسبقاً ما ستفعله بالجزائر- الابقاء على الاحتلال. وان ارسال اللجنة المذكورة ما هو إلا محاولة لاعطاء موقفها صورة شرعية عادلة يكسبها شعبية واسعة ودعماً جماهيرياً (في فرنسا لا في الجزائر). وعلى هذا الاساس استقبلت اللجنة في اليوم التالي لوصولها أرض الجزائر ممثلي السلطات العسكرية والمدنيه في الجزائر، واعضاء الغرفة التجارية، ولجنة استعمار الأراضي، ووفود المستوطنين الافرنسيين- الكولون- ووفد التجار الاوروبيين، ووفد أعيان العرب الحضريين- المور- بالإضافة الى وفد عن يهود الجزائر.

قسمت اللجنة الافريقية عملها على أفرادها بحسب اختصاصاتهم، فاختص رئيسها (الجنرال بوني)[١] بالمسائل العسكرية،والجنرال (سونفور)[٢] بالطرق والقناطر، والسيد (دوفال داي)[٣] بالبحرية. والسيد (لورانس)[٤] بالادارة والتشريع والقضاء. والسيد(د. اوبرسار)[٥] بالمالية والضرائب والعقارات.

---

(١) الجنرال بوني: (GEN . BONNET) (٢) مونفور: (MONTFORT).
(٣) دوفال داي: (D.DAILLY) (٤) لورانس: (LAURENCE)
(٥) د. اوبرسار: (D.AUBERSSART).

والسيد (رينار)[1] بالتجارة والصناعة والجمارك، والسيد (دي لا بينسونيير)[2] بالزراعة واستثمار الأراضي. وبقي نائب البرلمان (بيسكاتوري)[3] كاتباً للجنة.

كانت (التعليمات) التي سلمتها الحكومة الى اللجنة تحتوي على ٢٤ صفحة وفيها اسئلة كان على اللجنة أن تجيب عليها، ومنها: هل تحتفظ فرنسا بالجزائر أو تتخلى عنها؟ وفي الحالتين: ما هي فائدة فرنسا؟ ثم ما هي طريقة العمل المناسبة اذا كان الاحتفاظ بالجزائر هو الحل المقترح؟ وما الوسائل التي يجب على الحكومة استخدامها لتنفيذ الاقتراح؟ وكانت التعليمات أيضاً تقضي بان تشرح اللجنة جميع أوجه الحالة الراهنة في الجزائر. مع وصف حالة السكان الجزائريين، وطبقاتهم الاجتماعية وحالة الأراضي. والأمر الواضح هو ان مهمة اللجنة قد حددت بالبحث عن الوسائل للاحتفاظ بالجزائر على ضوء تجربة السنوات السابقة وليس الاجابة على ما اذا كان الاحتفاظ بالجزائر جائزاً أو ممكناً.

عقدت (اللجنة الافريقية) أول جلسة عمل لها يوم ٦ ايلول (سبتمبر) ١٨٣٣، ثم انطلقت بعد ذلك للقيام بجولة في مدينة الجزائر وضواحيها. فزارت المؤسسات العامة. وسهل متيجة متنقلة من (الحمين) الى (البليدة). وأثناء ذلك زارت المراكز العسكرية، وتنقلت في الطرق الجديدة باحثة عن المنشآت الصناعية التي قيل لها أنها قد اقيمت فوق أرض الجزائر. وفي ١٤ من أيلول - سبتمبر-

---

(١) رينار: (REYNARD)

(٢) د. لابينسونيير: (DE LA PINSONNIERE)

(٣) بيسكاتوري: (PISCATORY)

قامت اللجنة بزيارة (عنابة) وتجولت في بعض مناطقها التي اصبحت خاضعة للافرنسيين. وفي ٤ تشرين الأول- اكتوبر- ذهبت الى مدينة (وهران) وتجولت في ضواحيها. وزارت خليج (أرزيو) في ١٥ تشرين الأول - اكتوبر-. وحاولت زيارة (مستغانم) غير انها لم تتمكن من ذلك. وفي ١٦ من الشهر المذكور، زار بعض أعضاء اللجنة مدينة (بجاية) التي كان الافرنسيون قد استولوا عليها حديثا. وأخيراً عادت اللجنة الى مدينة الجزائر في ٢٣ تشرين الأول - اكتوبر -، لتبدأ في اليوم التالي جلساتها التي بلغ عددها (٣٠) جلسة. تمت خلالها مناقشة الموقف من كل النواحي. وكانت العلاقات مع العرب هي أساس البحث فطرحت مناقشة الموقف من ثلاث زوايا: **١- اتباع سياسة المهادنة- اللين - مع العرب حتى يمكن دمجهم في المجتمع الاوروبي الجديد. ٢- مواصلة الحرب ضدهم دونما أي هوادة حتى تتم ابادتهم أو دحرهم وإبعادهم عن المناطق التي احتلتها القوات الافرنسية أو التي ستقوم باحتلالها. ٣- احلال التشريعات الافرنسية محل التشريعات المحلية بهدف إبعاد العرب تدريجياً عن المناطق التي تدخل تحت السيطرة الافرنسية.**

تلخصت أفكار اللجنة الافريقية ووجهات نظرها بالتالي:

١- ان السلطة الافرنسية بالجزائر غير ملزمة بالاتفاقات التي يتم عقدها مع الوطنيين الجزائريين باعتبار أن هذه الاتفاقات والمعاهدات تدخل في اطار «استراتيجية الحرب وليست سلاماً دائماً».

٢- من المحال أن تطبق فرنسا النظام الذي كانت تتبعه الادارة العثمانية، لان الاتراك كانوا على دين العرب ولهم نفس العادات

والتقاليد العربية. ولذا يجب على فرنسا تطبيق النظام والتقاليد الافرنسية.

٣ـ احلال جاليات غربية محل السكان الاصليين، وافساح المجال لغير الافرنسيين للهجرة والاستيطان في الجزائر على ان تعطى الافضلية للافرنسيين.

٤ ـ تركيز جميع السلطات في الجزائر ـ المدنية منها والعسكرية ـ في قبضة سلطة عليا، هي سلطة الحاكم العام الذي اقترحت اللجنه ايجاد منصبه. مع تحديد صلة كل وزارة افرنسية بهذا (الحاكم العام) مع تشكيل مجلس بلدي يساعده في عمله، وتكوين هيئة ادارية تشابه في تكوينها النظام المتبع في فرنسا (الوطن الام).

٥ـ الاحتفاظ بالجزائر تحت اسم (الممتلكات الافرنسية في افريقيا).

٦ـ تشكيل المجلس البلدي من عناصر مختلطه فيها ممثلين عن العرب واليهود على ألا يزيد عدد العرب عن عدد الافرنسيين، ومهمة المجلس النظر في امور الادارة المحلية.

عادت هذه اللجنة بعد ذلك الى فرنسا، فشكلت لجنة أكبر، عقدت أول جلساتها في ٢٢ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٨٣٣ ثم استمرت هذه الجلسات التي زادت على ٥١ جلسة انتهت في شباط ـ فبراير ـ ١٨٣٤. وأقرت اللجنة معظم مقترحات (اللجنة الافريقية). وكان من أبرز النقاط في قرار (اللجنة الموسعة) ما يلي:

١ـ الاحتفاظ بالمؤسسات الدينية الخيرية، حرصاً من اللجنة

على تأمين الموارد الاقتصادية للخزينة الافرنسية، حيث قدر الدخل السنوى لأملاك (مكة والمدينة) بمبلغ (٤٠٠) ألف فرنك فيما اذا تمت ادارة هذه الاملاك بصورة جيدة[١].

٢ـ أوصت اللجنة بجعل الجزائر كلها أملاكاً افرنسية ـ دائمة وثابته ـ وانه يجب على فرنسا ألا تبقى في المدن الساحلية فقط، بل يجب عليها جعل تلك المدن مراكز أمامية لإمداد الجيش بضرورة حملات عسكرية توسعية في داخل البلاد لاخضاع كامل البلاد للسيطرة الافرنسية.

٣ـ مقاومة كل فكرة للتخلي عن الجزائر: «إذ أن التخلي عنها هو اهانة جديدة لشرف فرنسا (؟) علاوة على انه يشكل صدمة لذاتية الأمة الافرنسية الشرعية مما يؤدي أيضاً الى التضحية بالتجارة وبالتوسع السياسي لفرنسا والى تحطيم الآمال» وهكذا فحين جرى التصويت في البرلمان الافرنسي جاءت النتيجة ١٧ صوتاً لصالح الاحتفاظ بالجزائر مقابل صوتين لصالح التخلي عنها.

وظهر للجزائريين قبل كل شيء، وللعالم كله، أن القضية ليست قضية تأديب (للداي حسين باشا) او اخراج للاتراك من الجزائر يتبعها انسحاب افرنسي، وانما القضية قضية (احتلال واستعمار استيطاني). واسفرت فرنسا عن وجهها بعد تردد، واظهرت تصميمها على متابعة الطريق على الرغم من بعض الاحتجاجات في فرنسا ذاتها. مثل النائب الذي رفع صوته عند

---

(١) قدرت اللجنة عدد منازل وعقارات المؤسسات الخيرية ـ املاك مكة والمدينة في مدينة الجزائر (٢٦٠١) منزلاً من أصل خمسة آلاف منزل، بالاضافة الى (١٤٩) منزلاً في وهران و(٩١) منزلاً في مدينة عنابة.

مناقشة قضية الجزائر في البرلمان الافرنسي ليقول: «ان احتلال الجزائر ليس إلا محاولة جنونية، وهو هوة سحيقة تستنزف جميع خيرات البلاد الافرنسية» أو قول مقرر الميزانية الحربية عند مناقشة موازنة سنة ١٨٤٣ : «انني افضل أن استبدل الجزائر بأجمعها بكوخ صغير من اراضي الراين».

خلال تلك الفترة من سنة ١٨٣٤ ، لم تكن فرنسا قد سيطرت عسكرياً إلا على المنطقة الساحلية، فقد احتلت وهران (سنة ١٨٣٠) في الغرب وتبعتها مستغانم وارزيو (سنة ١٨٣٣). وكانت مدينة الجزائر واطرافها بأيديهم في الوسط. أما في الشرق، فقد خضعت عنابة (بونه) لحكم متناوب للسلطات الوطنية والافرنسية، اذ احتلها الافرنسيون مرات متعاقبة واخلوها بعد أن مني الافرنسيون بخسائر جسيمة، وصلت احياناً الى حد ذبح الحامية الافرنسية بكاملها. اما بين عنابة والجزائر، وفي موقع متوسط بينهما، فقد كان هناك خليج بحري تقوم بجنوبه (بوجي) التي احتلتها في سنة ١٨٣٣ حملة افرنسية جاءت اليها من فرنسا مباشرة. غير ان قوات هذه الحملة بقيت محاصرة داخل المدينة، حيث كان رجال القبائل المنتشرين على مقربة منها يهاجمون القوات الافرنسية باستمرار. ولم يكن من السهل اخضاع هذه القبائل أو محالفتهم. أو اجتياز الطرق عبر أراضيهم، فبقيت القوات الافرنسية محاصرة فوق أرض الساحل. ولقد حاول الافرنسيون التوسع نحو الداخل، غير ان تقدمهم كان بطيئاً جداً بسبب المقاومة المتصاعدة. ولم تكن سهول متيجة (متوجة) في جنوب مدينة الجزائر هادئة أو خاضعة خضوعاً تاماً للافرنسيين وذلك بسبب سيطرة القبائل العربية العديدة على أرض هذا السهل.

الفصل الثالث

١ـ في النظرية الاستعمارية

٢ـ في الجهاد ـ والمقاومة

١- في النظرية الاستعمارية

تبرز عملية احتلال فرنسا للجزائر النموذج المتكامل للحروب الاستعمارية والتي تضم نماذج متنوعة من الاعمال القتالية التي تؤدي بطبيعتها لاندلاع (الحروب الثوروية). وتعتبر عملية غزو الجزائر بسيطة في خططها العامة، حيث قام (فيلق الغزو) بتركيز ثقل هجمته على نقطة معينة من أرض الساحل، ثم نظم قاعدته للقيام بهجوم حاسم ضد كتلة القوات الرئيسية، ووقعت قيادة هذه القوات بالحطيئة القاتلة، حيث بالغت كثيراً في تقويم قدراتها الذاتية وتجاربها القتالية، مما ادى بها الى الاستهانة بقوات الغزو التي لم تقدم على تنفيذ كل خطوة من خطواتها إلا بعد دراسة دقيقة للموقف، وإلا بعد جمع معلومات كافية لطبيعة مسرح العمليات وقدرات الوطنيين وامكاناتهم القتالية وأساليبهم الخ . . . وهكذا، ومقابل استهانة (الداي حسين) بقوات الخصم، كان قائد قوات الغزو (دوبورمون) يعرف مراحل عملياته بدقة، فكانت المعركة الرئيسية في (اسطاوالي) اختباراً قاسيا لحوار الارادات المتصارعة ولحوار الاسلحة المتفوقة في الوقت ذاته، وقد أفادت قوات الغزو من تفوق وسائلها النارية وكثافة قواتها لمجابهة قوات تفتقر الى

التنظيم الصحيح والى وسائل القتال المناسبة . وفي الواقع، فقد كانت الامكانات القتالية فوق أرض الجزائر متوافرة، غير أنه لم يتم حشدها بكاملها فاستطاعت القوات الافرنسية ان تلتهم القوات التي كان يتم تقديمها على مراحل متتالية . أخذت قوات الغزو بعد ذلك في التوسع (على طريقة بقعة الزيت) أو(الخرشوفة) . وقد اصيبت خلال هذه المرحلة بمجموعة من الانتكاسات والهزائم الناجمة عن تعاظم المقاومة، وعندئذ لجأت السلطات الاستعمارية الى أساليب تبادلية تمزج بين (الصراع السياسي) و(الصراع العسكري) وذلك عن طريق تهدئة بعض الجبهات لتركيز الجهد على جبهة واحدة، يتم تدمير المقاومة فيها، ثم يتم الانتقال الى منطقة اخرى، وهكذا .

لقد عملت فرنسا في تنفيذ (نظرية الاستعمار) بعزل الجزائر أولاً عن العالم الخارجي (وسبقت الاشارة الى أن (احمد باي قسنطينة) كان يجد صعوبة حتى في ارسال رسائله الى دارالخلافة ـ في استانبول ـ بسبب هذا الحصار ـ كما عزلت الجزائر عن جوارها (تونس والمغرب) وبذلك أمكن لها تركيز كل ثقلها العسكري ضد الجزائر . وتم تطوير هذه النظرية فوق أرض الجزائر ذاتها، فكانت الادارة الافرنسية تقود عملياتها ضد كل أقليم، أو حتى كل مدينة، بمعزل عن بقية مراكز المقاومة، وساعد في نجاح هذه الخطة ما كان بين قادة مراكز المقاومة من تناقضات استثمرتها الادارة الاستعمارية الى أبعد الحدود، حتى انها استطاعت تدمير المراكز الثوروية عن طريق ضرب بعضها ببعض مما أدى الى اضعافها جميعاً .

انصرفت الادارة الاستعمارية بعد ذلك لتأمين (هدف

الاستعمار) وتحقيق (النهب الاستعماري) وهو ما عبر عنه سفير السويد بقوله: «**كان من ينظر الى نقل المغانم الى فرنسا يظن أن فرنسا على وشك الجلاء، في حين كان من ينظر الى اقامة الحاميات وشق الطرق وتدعيم التحصينات يعرف أن فرنسا باقية في البلاد**» ولقد استمرت هذه الظاهرة في الواقع، مرافقة للعهد الاستعماري طوال فترة الاستعمار. وقد حاولت فرنسا منذ البداية تنظيم ادارتها على الاسس التالية:

١ـ الاعتماد على فئات الاقليات في البلاد ـ أو تلك القوى الوطنية والمراكز الدينية ـ التي يمكن لها تقديم الدعم للادارة الاستعمارية، ولو بصورة مرحلية، من أجل ادارة البلاد مع ابقاء هذه الفئات أو العناصر المتعاونة مع الادارة الاستعمارية تحت المراقبة الشديدة.

٢ـ تشكيل قوات عسكرية من أبناء البلاد، للتخفيف من أعباء النفقات الاستعمارية من جهة، ولتوفير القدرة البشرية الاستعمارية. مع محاولة اقتلاع هذه القوات من بيئتها وعزلها حتى تصبح أكثر طواعية لتنفيذ الارادة الاجنبية المضاده يطبيعتها للارادة الوطنيه (الزوافـ واللفيف الاجنبي.. الخ...).

٣ـ عدم السماح بتشكيل مراكز القوى، ومحاولة التدمير المستمر لهذه المراكز (سياسياً وعسكرياً) بكل الاساليب المتوافرة للاستعمار من نهب وتشريد وتوجيه اتهامات ملفقه ومزورة.

٤ـ تدمير مواقع الصمود المعنوية، ومن هنا فقد جاء الهجوم على المساجد وأماكن العبادة والحملة الصليبية على الاسلام كوسيلة وغاية في وقت واحد، وسيلة لاضعاف المقاومة الجزائرية

من جهة، وغاية (في اطار الحروب الصليبية الشاملة) التي تضمن تأمين عملية النهب الاستعماري.

٥ـ تطوير عملية (الهجرة والاستيطان) في محاولة لايجاد مراكز قوى يمكن الاعتماد عليها بصورة ثابتة لتحقيق هدف مزدوج (تأمين النهب الاستعماري والتوسع فيه) و(تخفيف نفقات النهب الاستعماري) بتحميل هؤلاء المستوطنين قسماً من أعباء الدفاع.

٦ـ الافادة من الانتصارات التي تحرزها القوات العسكرية لدعم مبدأ الاستعمار (تفوق الرجل الاوروبي ـ الابيض) وتعزيز (الهيبة الاستعمارية للقوة التي لا تقهر). واعادة ذلك الى (تفوق الديانة المسيحية) وفضائلها وكذلك التقدم الحضاري للغرب والذي يقابله التخلف الحضاري والوحشية للعرب والمسلمين بصرف النظر عن المضامين الحقيقية لهذه الشعارات، وينخدع المواطنون ـ بعضهم بداهة ـ فيصدقون المزاعم الاستعمارية، وينتقلون بصورة طبيعية إلى المعسكر المضاد للتطلعات الوطنية والقومية ويصبحون ـ ولو إلى حين ـ في الخندق المعادي لأمتهم.

المثير في الأمر هو تبدل الادارات الافرنسية بسرعة مذهلة خلال مرحلة الغزو الاستعماري للجزائر، فقد سقط شارل العاشر مع بداية مرحلة الهجمة الاستعمارية، وتغيرت انظمة متتالية، وفي الوقت ذاته تبدلت الاجهزة القيادية العسكرية تبدلاً سريعاً سواء بنتيجة التحولات السياسية في فرنسا، أو بسبب الفشل الذي كان يلاحق عمليات الغزو. وعلى الرغم من ذلك، وعلى الرغم أيضاً من ظواهر التخبط، فقد بقي هناك محرض ثابت يكمن وراء الغزو والتوسع:

أولها: وجود محرض عسكري خلفته الثورة الافرنسية للتوسع

فيما وراء البحار، فقد كونت الثورة وما أعقبها من حروب (الحروب النابوليونية) أجهزة عسكرية ضخمة تطمح لاثبات وجودها من جهة وللتعويض عما فقدته فرنسا في عهود الملكية من مستعمرات فيما وراء البحار (انتزعتها من قبضتها بريطانيا بفضل قدرتها العسكرية المتعاظمة في البحر). ومن الملاحظ أن معضم القادة (الجنرالات) كانوا من الذين خاضوا الحروب تحت راية نابليون بونابرت.

ثانيها: وجود محرض اقتصادي أبرزته القدرة الصناعية المتعاظمة والحاجة للاسواق الخارجية وظهر ذلك بوضوح تام منذ أن وطئت أقدام الغزاة أرض الجزائر.

ثالثها: وجود محرض ديني يشكل حافزاً قوياً لتغطية عملية الاستعمار القذرة بغطاء ديني (ايديولوجي) فاضل، واستخدام هذا الحافز لتحريض المقاتلين على تنفيذ عملياتهم بوحشية وقسوة (وهذا ما يترجم أو يفسر عملية الابادة الوحشية للمسلمين والاعتداء على مقدساتهم ومساجدهم وأوقافهم). وعلى الرغم من أن هذا المحرض قد يحتل المرتبة الثالثة بعد العاملين السابقين، إلا أنه احتل المرتبة الاولى عند التطبيق العملي والممارسة الواقعية، وذلك لأن النجاح في تحقيق أهداف المحرضين أو العاملين السابقين انما يرتبط بالقدرة على تدمير المقاومة الجزائرية. وتدمير هذه المقاومة يرتبط بدوره بحرمانها من قاعدتها الدينية الصليبية واضعاف هذه القاعدة باحلال قيم جديدة تحمل ظواهر (حضارية) خادعة. وعندما يتساوى الطرفان المتصارعان ـ أو يلتقيان ـ على القاعدة المعنوية الجديدة، يبقى التفوق المادي في قبضة الارادة الاستعمارية التي يمكن لها حسم الصراع النهائي لمصلحتها.

غير ان الوصول الى هذا الهدف، يتطلب وجود تفوق حقيقي- لا وهمي- وقد كانت فرنسا تتفوق على الجزائر تفوقاً وهمياً (في حجم القوى وفي القدرة القتالية وفي المستوى العلمي والاجتماعي) ومن هنا كان من الصعب على فرنسا اقناع الجزائر بقصورها وتخلفها أو بضعف قاعدتها الدينية فكان لا بد - بالتالي- من استخدام وسيلة الاكراه بالقمع والقوة لتكوين هذه القناعات الجديدة، مع ايجاد الوسائل الكفيلة بدحر الجزائر في هذه المجالات. وهذا ما يفسر أساليب الادارات الافرنسية المتتالية لتعميم الجهل ولإفقار الشعب الجزائري (وتجويعه) حتى يستكين للادارة الاستعمارية. ومن الملاحظ أن الاسس والعوامل هذه والتي رافقت الاستعمار منذ بدايته قد استمرت وتطورت بصورة منهجية وثابتة طوال عهود الاستعمار، على الرغم مما كان بين هذه العهود من متناقضات ومفارقات مثيرة.

٢ـ في الجهاد والمقاومة

لم تكن الجزائر المجاهدة (المحروسة) يوم اجتاحتها جحافل الغزاة البرابرة بالبلد الفارغ من القدرة (فقد كان سكانه في حدود العشرة ملايين). ولم يكن أفراد شعبه بالجهلة، (فقد كان معظم ابنائه من المتعلمين الذين يجيد أكثرهم القراءة والكتابة) واذا كانت بعض التخصصات العلمية مفقودة، فقد كان هناك ما يملأ هذا الفراغ من الخبرات الطبية المتوارثة والتي عادت اليوم للظهور رغم كل تطور علمي وتقني (التداوي بالاعشاب والطرائق الطبيعية الخ..) ولم يكن الشعب الجزائري فقيراً، أو بائساً، فقد كانت موارده وفيرة وتجارته مزدهرة بحسب كل الشواهد المتوافرة. ولم يكن أفراد هذا الشعب يجهلون استخدام السلاح، إذ كانت لهم خبراتهم القتالية بسبب ممارساتهم المستمرة للجهاد في البر والبحر.

من هنا ظهرت الصعوبة الاولى التي جابهت الارادة الاستعمارية والتي اصيبت بالاحباط إذ انها لم تتمكن بعد انتصارها الأولي من الحصول على انتصارات سهلة ورخيصة. ولكن على الرغم من ذلك، فلا بد من الاشارة الى الثغرات التي ظهرت في

أوساط المقاومة وأضعفتها، مما ساعد الارادة الافرنسية على تنفيذ مخططاتها الاستعمارية:

١ـ خاضت قوات المقاومة معاركها بصورة متنافرة، ومتضادة في معظم الاحيان، وكان كل مركز من مراكز القوى هذه يعتقد في نفسه القدرة على مجابهة (جيش الغزو). وقد استطاعت بعض المعارك الظافرة من تعزيز هذا الشعور بالقوة الوهمية. وتجاهلت قيادات مراكز هذه القوى الارادة الواحدة الموجهة للقوى الاستعمارية والتي يمكن لها باستمرار تأمين تفوق بالقوى وبوسائط القتال لاحراز نصر عسكري حاسم.

٢ـ لم تفد مراكز القوى المقاومة من تجاربها القتالية السابقة، فقد أمكن لها تحقيق الانتصارات في معاركها باستمرار عن طريق استنزاف قدرة العدو قبل الانتقال للمعركة الحاسمة. في حين خاضت فرنسا معاركها في هذه المرة بطريقة الجزائر ذاتها، حيث عملت على استنزاف القدرة الجزائرية في معارك متتالية قبل الوصول الى الحسم. وكانت موارد فرنسا تسمح لها بالتعويض عما تفقده في حروب الاستنزاف في حين كانت وسائل المجاهدين محدودة في التعويض عن خسائرهم، وهذا ما يفسر انهيار قيادات المقاومة بعد خسارة كل معركة حاسمة.

٣ـ خاضت الجزائر معاركها السياسية بمعزل عن معاركها العسكرية، ولقد تولى (حضر الجزائر) قيادة الصراع السياسي مع السلطات الاستعمارية بصورة افرادية، وبصورة منعزلة تقريباً عن القيادات العسكرية في الاقاليم. ومن هنا كان الطابع العام للصراع السياسي فردياً. وقد اسهمت الادارة الاستعمارية بتعزيز هذه الفردية

لاضعاف كل تكتل سياسي. فكان الجزائريون يقولون ما يريدون وتفعل الادارة الاستعمارية ما تريد.

٤- لقد رافق عزل الجزائر عسكرياً ضرب نطاق مماثل من العزلة السياسية. فأمكن بذلك إضعاف المقاومة معنوياً، الأمر الذي انعكس على القدرة القتالية للمجاهدين.

٥- ساعد هذا المناخ على ظهور المغامرين والطامعين والانتهازيين الذين اسهموا في إضعاف قدرة الجزائر على الصمود والمقاومة. وشكلوا طابورا خامساً لمصلحة اعداء البلاد. وعلى الرغم من (صحوة كثير من هؤلاء) غير أن عودة الوعي جاءت متأخرة. فانتهى الأمر بهم الى نهايات مأساوية إذ أصبحوا منبوذين داخلياً ومنبوذين من الادارة الاستعمارية بعد أن استنزفت غايات وجودهم.

٦- مارست الاقلية اليهودية دوراً كبيراً في تثبيت دعائم الاستعمار الافرنسي في الجزائر بفضل تحالفها معه، وعلى الرغم من أن (فكرة الصهيونية) لم تكن قد ظهرت بعد، إلا أن تجربة يهود الجزائر قد أفسحت المجال أمام (المخططات الاستعمارية) للافادة من هذه التجربة وتطويرها خلال مرحلة المد الاستعماري عبر العالم العربي- الاسلامي.

٧- لم تحاول المقاومة الجزائرية، ولو مجرد محاولة، مهادنة الاستعمار الصليبي، فقد عرفت بفضل خبراتها المتوارثة، وبفضل عقيدتها الاسلامية الصلبة، ما يراد لها عبر الهجمة الصليبيه الشرسة، فانسحبت من وجه الاستعمار، وتقوقعت في عزلتها، محتفظة بأصالتها الثوروية، متمسكة بقواعد ثباتها وصمودها،

مجاهدة بكل قدراتها على احباط مخططات اعداء الدين- مختارة في كل مناسبة الطرائق المناسبة، فاذا كانت قد عجزت عن ايقاف الزحف الصليبي على الجزائر المحروسة إلا أنها لم تعجز عن ازدراء هؤلاء الصليبيين (بالسلبية والصمت).

٨- وكما كان شعب الجزائر المجاهد هو المحرض على الجهاد، وهو الذي يوجه التيار امام القادة في عهود النصر (ايام الاتراك العثمانيين ضد الاسبانيين، وخلال أعمال الجهاد في البحر). فقد بقي هذا الشعب هو المحرض على الجهاد أيام الانتكاسات والهزائم، اذ انه كان يتحرك خلف القيادات الأكثر اخلاصاً والأكثر التزاماً بحمل أعباء الجهاد في سبيل الله. وهذا ما يفسر على سبيل المثال قدرة (باي قسنطينة) على الصمود طويلاً، رغم كل الظروف الصعبة التي كانت تحيط به. وعلى الرغم من كل المؤامرات الداخلية والخارجية.

قد يكون من المثير بعد ذلك ملاحظة هذه العوامل، ومراقبة تطوراتها عبر الصراع الطويل الذي خاضته الجزائر المجاهدة طوال ليل الاستعمار.

لقد انتصرت فرنسا في الجولة الاولى، واسقطت (الداي حسين باشا) غير انها لم تتمكن من الانتصار على شعب الجزائر. وتمكنت من تمزيق القيادات الجزائرية، غير انها لم تتمكن من تمزيق الشعب الجزائري. ونجحت في تكوين فئة من العملاء، غير أنها لم تتمكن من تحطيم ما يملكه الشعب من أنفة وكبرياء ودمرت المساجد الإسلامية غير أنها لم تتمكن من إضعاف المسلمين ونهبت ثروات الجزائر

وما فوق ارضها، غير انها لم تتمكن من سحب الارضية الصلبة من تحت أقدام المجاهدين في سبيل الله. لقد اصيبوا بهزيمة، ونزلت بهم نازلة، غير أن القاعدة الاسلامية أقوى من كل هزيمه وأكبر من كل نازلة، فكان لا بد من الاستمرار في حوار الارادات عبر صراع مرير لم تعرف له البشرية مثيلاً في ضراوته وعنفه وقسوته. وكان من المحال على شعب الجزائر الاستمرار في الصمود والمقاومة لولا التزامه (بحروب الايمان).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرى عَلى الله الكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إلىٰ الإِسْلام والله لا يَهْدِي القَوْمَ الظَالِمينَ يُريدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ الله بأَفْواهِهِمْ والله مُتِمُّ نورِه ولَو كَرِهَ الكَفِرُونَ﴾ .

(سورة الصف الآية ٧ و ٨)

قـراءات

١ـ قصة اليهودي ومروحة (دوفال)

٢ـ نداء (دوبرمون) الى اهالي الجزائر عشية الغزوة الصليبية الافرنسية

٣ـ معاهدة الاستسلام التي وقعها الداي(حسين باشا) يوم ٤ تموز (يوليو) ١٨٣٠ م

٤ـ من تقرير (اللجنة الافريقية سنة ١٨٣٣)

٥ـ رسائل وثائقية (للحاج احمد باي قسنطينة)

- ١ -

قصة اليهودي ومروحة دوفال

كانت الحكومة الافرنسية تشتري ما تحتاجه من المواد الغذائية من الموانىء الجزائرية بطريقة مباشرة. وتولت ذلك (الشركة الملكية الافرنسية) ثم (الوكالة الوطنية الافرنسية)[١] التي كانت تدفع ثمن ما تشتريه الى الحكومة الجزائرية. ثم غيرت فرنسا طريقة الدفع- أثناء حكومة المؤتمر- فلجأت الى التاجرين اليهوديين- بكري وبوشناق- ليقوما بالدفع الى الحكومة الجزائرية نيابة عن الحكومة الافرنسية.

كان (ميشيل كوهين بكري- المعروف باسمه المستعرب ابن زاهوت) قد أقام تجارة له في أوروبا قبل أن يفتح له مركزاً في الجزائر سنة (١٧٧٠ م). وكان هذا المركز متواضعاً في البداية، غير انه لم يلبث أن ازدهر بسرعة عندما انضم اليه الاخوةاليهودالثلاثه لبكري- ابن زاهوت- وابنه داوود، وصهره نافتالي بوشناق (المعروف باسمه

(١) الشركة الملكية الافرنسية: (COMPAGNIE ROYALE D'AFRIQUE) وقامت بدلاً عنها بعد الثورة الافرنسية الوكالة الوطنية: AGENCE NATIONALE

المستعرب أيضاً بوجناح والذي كان بدوره من اسرة لها علاقات تجارية في الخارج وجاءت الى مدينة الجزائر سنة ١٧٢٣ تقريباً).

اعتمد (بوجناح) الاسلوب الذي اتقنه اليهود في جمع الثروة واكتنازها، ووجد ضالته في تلك البيئة المتحللة من القيم الدينية والاجتماعية، وهي متوافرة في كل مجتمع وكل زمان، وقد مثلها في تلك الفترة طبقة من حكام الجزائر، وقد حفظ تاريخ الجزائر نماذج عديدة من تلك الفئة. منهم على سبيل المثال (مصطفى بن عصانجي) (باي التيطري بين ١٧٧٥- ١٧٩٥) الذي كان يخشى غضب الباشا عليه بسبب رحلاته الرتيبة الى مدينة الجزائر في كل ثلاث سنوات، مما حمله على اعتزال الناس حتى لم تعد له الجرأة على مقابلة أحد. وهنا قام (بوجناح) بالوساطة وشجعه ومنحه ما يحتاجه من المال وتوسط له عند الباشا حتى تم تعيينه باياً (حاكماً) على قسنطينة. وحفظ (مصطفى بن عصانجي) في نفسه هذا الجميل وقدره، فجعل من (بوجناح) موضع ثقته ورجل اعماله، مما مكن (بوجناح) من استثمار نفوذه وسلطته للحصول على الثروة. ويذكر هنا ان (الباي مصطفى) أراد أن يتقدم بهدية ثمينة الى امرأة الباشا فطلب من (بوجناح) أن يأتيه بهدية ثمينة تعرف في الجزائر باسم (الصريمة) فجاءه بها وثمنها (٣٠) ألف فرنك. ولم يدفع له الباي ثمنها، وإنما أعطاه بالمقابل (٧٥) الف كيلة قمح بسعر الكيلة الواحده أربع فرنكات. وحمل (بوجناح) القمح وباعه في فرنسا- وكان محتكراً لتجارة الحبوب - فبلغ ربحه من هذه الصفقه (٣,٤٥٠,٠٠٠) فرنك فرنسي.

وبذلك ازدهرت تجارة (بكري) و(بوجناح- بوشناق) تحت حماية بعض الباشوات (مثل حسن ومصطفى) وأصبح نفوذ اليهوديان

(بوجناح) و(ابن زاهوت) قوياً في كل المجالات الحيوية في دولة الجزائر. وكانا على علم بأحوال البلاد الداخلية، وكانا يتجسسان على المواطنين الجزائريين لصالح الحكام. واذا كان (ابن زاهوت) قد حدد فعالياته في مجال التجارة، فان (بوجناح) قد تجاوز ذلك الى حدود نشاط الدولة، فكان يرفع الموظفين والبايات ممن يخضعون له ويدمر من يقاومه أو يعترض سبيله، مما جعل الجزائريين يطلقون عليه اسم (ملك الجزائر). وبلغ من نفوذه أنه كان يستقبل هو وزملاءه- باسم الباشا- القناصل الأجانب، كما فعل مع قنصل الدانمارك والسويد وهولاندا (سنة ١٨٠١ م) كما قام هو وشركاءه اليهود بالمفاوضات بين الجزائر والبرتغال. وفي سنة (١٨٠٤ م) استقبل مبعوث السلطان إلى الجزائر. وتجاوز نشاط اليهوديين الجزائر، وتطور ليشمل البحر الابيض المتوسط، فأصبحت لهما مراكزهما التجارية في مرسيليا وجنوا ونابولي وأزمير والاسكندرية وتونس وليفورنيا وقرطاجنة (الاسبانية) ومنطقة الراين وبلجيكا. وأصبح لهما بالتالي نفوذهما الواسع لدى الدول الكبيرة أو الصغيرة نظراً لما كانا يقدمانه من قروض- وعمولات- للمتعاونين معهما. وكان هذين اليهوديين مدينين للدولة الجزائرية في حين كانت فرنسا مدينة لليهوديين بمبلغ تم تقديره في سنة ١٧٩٥ م بمبلغ مليونين من الفرنكات. أما دين اليهوديين للجزائر فقدر بمبلغ (٣٠٠) ألف فرنك. وعين اليهوديان ممثلاً لهما في مرسيليا هو (يعقوب البكري) الذي لم يلبث ان نقل نشاطه الى باريس. وقد ثار الرأي العام الافرنسي ضد نفوذ اليهود الجزائريين في فرنسا، ولكن الوزير الافرنسي (تاليران) الذي كسبه اليهود، تدخل لمصلحتهم، وحمل الحكومة الافرنسية على التراجع عن تنفيذ الاجراءات التي كانت

تعتزم اتخاذها ضدهم. كان من نتيجة ذلك، أن تورطت الحكومة الجزائرية في قضية الدين الافرنسي المتوجب دفعه لليهود، إذ كتب (حاكم الجزائر مصطفى باشا) الى (تاليران) يطلب اليه أن تقوم الحكومة الافرنسية بدفع الدين الذي عليها الى رعاياه اليهود، وأصبحت قضية الدين مطروحة على المستوى الحكومي. وأصبح (سيمون أبوقية) بعد فترة، هو ممثل تجارة يهود الجزائر في باريس، وتقدم بمذكرة الى فرنسا عن القرض الذي بلغ (٣,٣٧٧,٤٤٥) فرنك. وفي سنة ١٨٠٢، ارتفع هذا الدين حتى بلغ (٨,١٥١,٠٠٠) فرنك. وكان (باشا الجزائر) لا يفتأ يطالب الحكومة الافرنسية بالدين الذي يجب عليها دفعه لرعاياه اليهود. ولكن بدون جدوى، ومما يذكر أن الحكومة الافرنسية قد سجنت ممثلي يهود الجزائر في بلادها إثر اعلان الحرب بين الدولتين (١٧٩٨ م) على اساس انهم رعايا جزائريون، ثم أطلقت سراحهم بعد انتهاء الحرب (١٨٠١ م). وفي الجزائر، كان اليهود عامة، وابن زاهوت وبوجناح خاصة، يتعرضون للاضطهاد بسبب نشاطاتهم غير النظيفة، وكانت حماية (الباشا) لهم حماية مؤقتة لهدف معين (على نحو ما كان عليه الباشا مصطفى). وأدى تدخل اليهود السافر- والفاضح- في شؤون الدولة الى كراهيتهم، وكان ذلك هو السبب الذي دفع أحد الانكشارية الى قتل (بوجناح الملقب بملك الجزائر) في صيف سنة ١٨٠٥، وتبع ذلك رد فعل عنيف ضد اليهود، وفي السنة ذاتها اغتيل (مصطفى باشا) الذي كان يعمل على حمايتهم. وعندما تولى (احمد باشا) الحكم في الجزائر، صادر املاك (بوجناح) واضطهد الافراد البارزين من اسرة (بكري- ابن زاهوت) وقد مارس (داوود دوران) منافس (ابن زاهوت) و(بوجناح) دوراً هاماً

في المصير الذي لحق بصاحبيه، وفي رئاسة الطائفة اليهودية في الجزائر. غير أن أيام ازدهار (دوران) لم تكن طويلة، فقد استعاد (يوسف بكري) سمعة العائلة، كما حل ابنه (داوود) محل (دوران) في رئاسة الطائفة اليهودية. وتابع (دوران) ممارساته في الكيد لهما إلى أن نجح في تجريدهم من جميع سلطاتهم. ففي سنة ١٨١١، قطع رأس (داوود بكري) الذي اتهم بالوشاية بالباشا لدى السلطان، وحل (دوران) محله. ولكن هذا لم يستمر في عمله سوى ثمانية شهور، لأن يوسف بكري الذي كان عجوزاً قد ثأر منه لابنه داوود. غير أن سلطة يوسف لم تدم طويلاً أيضاً، لأن (عمر آغا) قد أمر بنفيه (سنة ١٨١٦) فذهب يوسف الى (ليفورنيا). وقد حل محله بالجزائر (يعقوب بكري) الذي كان ممثلاً لتجارة هؤلاء اليهود الجزائريين في باريس والذي لم يكن محل ثقة العائلة. ومما يذكر أنه كان قد حصل على الجنسية الافرنسية. وأصبح يعقوب في الجزائر هو المسؤول عن التجارة التي تديرها اسرة بكري، وهو زعيم الطائفة اليهودية في الوقت ذاته.

عينت الحكومة الافرنسية لجنة رباعية لدراسة الدين الذي على فرنسا لرعايا الجزائر اليهود في سنة ١٨١٩، وقدرته اللجنة بمبلغ (٤٢) مليون فرنك. ولكن هذا المبلغ انخفض شيئاً فشيئاً حتى وصل (٧) ملايين فرنك فقط، نتيجة مطالبة أطراف أخرى بديونها على اسرة (بكري- بوشناق) ولكن المذكرة التي اصدرتها الحكومة الافرنسية في ٢٨ تشرين الأول ـ اكتوبر- ١٨١٩ م. اكدت ان ملك فرنسا عازم على ارضاء مطلب باشا الجزائر للمحافظة على العلاقات الودية بين الجزائر وفرنسا. (غير ان المذكرة نصت على أن فرنسا لن تسدد الدين إلا بعد اعلان الباشا التخلي عن مطالبته

بتسديد الدين له بدل بكري). واعلن الباشا رسمياً- يوم ١٢ نيسان- ابريل- انه يوافق على أي طريقة لتسديد الدين- حتى لو سددت الحكومة الافرنسية الدين الذي عليها الى يعقوب بكري مباشرة. والأمر الواضح هو أن يعقوب سيدفع ما عليه من الدين للجزائر بمجرد استعادته لما له من دين على الحكومة الافرنسية. وفي ٢٤ تموز- يوليو- سنة ١٨٢٠ م. صدر قانون عن البرلمان الافرنسي بتخصيص (٧) ملايين فرنك لتسديد الدين الى يعقوب بكري. وعندئذ واجهت الحكومة الافرنسية- على ما قيل- مطالب كثيرة يدعي أصحابها بأن لهم دين عند يعقوب بكري. وأمام ذلك، أحالت الحكومة الافرنسية القضية بكاملها الى القضاء، وكان ذلك يعني عدم حصول (حاكم الجزائر) على ديونه المتراكمة عند (يعقوب بكري).

كان (الباشا حسين) قد تولى حكم الجزائر سنة (١٨١٨ م) خلفاً للباشا (علي خوجة). وقد اشتهر بالغيرة على الدين، وباليقظة الدائمة والميل الى الاهالي. وكان دون الخمسين من عمره حين تولى الحكم. وقد ورث قضية الدين الذي على فرنسا لرعاياه اليهود. كما واجه عدة ضغوط من فرنسا وبريطانيا، بعد مؤتمر فيينا لالغاء الرق وإبطال دفع الضريبة السنوية على الدول الاوروبية والواقع أن هناك أقوالاً متضاربة حول شخصيته ومزاجه وقدرته، فبعضهم يتهمه بالقسوة والتهور والتهاون، وبعضهم يصفه بالخيرية والأمانة والشهامة. والمهم في الأمر هو أن الباشا طلب من فرنسا أن تدفع اليه شخصياً الدين الذي عليها ليعقوب بكري، وسيتولى هو وليس المحاكم الافرنسية تسديد الديون التي على البكري للدائنين. وكتب الباشا بذلك الى الحكومة الافرنسية التي لم تحاول

الرد بحجة ان وزير الخارجية (البارون داماس) لم يفهم طلب الباشا طالما أن سلفه قد وافق على ان تدفع فرنسا مباشرة الى (بكري). وقد اتهم الباشا القنصل الافرنسي (دوفال) باخفاء رد فرنسا عنه، وزاد في سو التفاهم بينهما ما قاله (يعقوب البكري) من أنه دفع بعض الأموال للقنصل الافرنسي، فزاد ذلك من عدم ثقة الباشا في القنصل. ولذلك طلب الباشا الى فرنسا استدعاء قنصلها، ودفع الدين الذي لبكري له شخصياً. ولكن فرنسا بدلاً من أن تسمي قنصلاً جديداً- وفقاً للعادة المتبعة في التمثيل الديبلوماسي- وبدلاً من أن تجيب الباشا بخصوص الدين، أرسلت الى الجزائر سفينة حربية بقيادة الضابط (فلوري). طالبة من الباشا دفع تعويضات معينة، ومدعية عليه ادعاءات مختلفة.

ويذكر هنا أن (الباشا) قد سجن في سنة (١٨٢٦) يعقوب بكري لعدم وفائه برد الدين المستحق للقنصل الانكليزي. كما حمله على التنازل عن كل الديون التي يدعيها (بكري) على اسبانيا وفرنسا وسردينيا، وإجراء هذا التنازل للداي (حسين باشا). الذي كرر مطالبته لفرنسا بتعيين قنصل جديد ودفع الديون، وعادت فرنسا من جديد فأرسلت في هذه المره أربع سفن حربية بقرار من مجلس الوزراء وذلك في شهر نيسان (ابريل) ١٨٢٧ م.

أقبل عيد الفطر الأول من شوال سنة ١٢٤٣هـ - مصادفاً ليوم ٢٧ نيسان - ابريل- ١٨٢٧، وحضر القناصل الاجانب كالعادة الى الديوان لتهنئة الباشا بالعيد. ودخل قنصل فرنسا (الجنرال دوفال) ليهنئه بعيد الفطر السعيد (وكان يتقن التركية - في حين تذكر مصادر اخرى انه لا يتقن التركيه إلا بقدر ما كان والي الجزائر حسين باشا

يتقن الافرنسية : . فسأله حسين باشا عن سبب عدم رد ملك فرنسا على رسالته. فما كان من (دوفال) إلا أن أجابه محتداً: (ليس من العادة أن يخاطب الملك من هو أدنى منه بدون وساطة) ففهم منها الباشا ان ملك فرنسا لا يتنازل لاجابته، فاشتد غضبه وثارت ثائرته لهذه الاهانة، وصاح بالقنصل مشيراً بمروحة من ريش النعام كانت بيده (اخرج من هنا!) وبتلك الاشارة لمست أطراف المروحة وجه القنصل. فعظم هذا الأمر على (دوفال) الذي خرج صاخباً متوعداً، وطير الى فرنسا برقية ينبيء حكومته بما جرى له، وكيف لطمه الباشا بمروحة على وجهه، فأتاه الأمر بمبارحة الجزائر حالاً فهيأ أمتعته وغادر الجزائر ورافقه أكثر الافرنسيين المقيمين هناك[1] فلما رأى الداي ما فعلت فرنسا بنقل رعاياها، أدرك أنها لا بد لها من أن تحاربه، فأصدر أمره بالقبض على من بقي من الافرنسيين في بلاده، وضبط أملاكهم، وخرب قلعة- دي كار- الفرنسية. فأعلنت **فرنسا الحرب على الجزائر في ١٦ من حزيران - يونيو - سنة ١٨٢٧ م.**

(١) جاء في تاريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتلال ـ الدكتور أبو القاسم سعدالله ـ الجامعة العربيه ١٩٧٠ـ القاهرة، ما يلي: «وأمر الباشا القنصل بالخروج، وعندما لم يتحرك، ضربه بالمروحة التي كانت بيده. وادعى دوفال في تقريره الى حكومته بأنه ضربه ثلاث مرات. أما الباشا فقال بأنه ضربه لأنه أهانه. وتذهب رواية اخرى الى ان الضرب لم يقع أصلاً ولكن وقع التهديد بالضرب. وفي حاشية المصدر المذكور ص٢٠ـ يقر خوجة ـ حمدان عثمان مؤلف كتاب ـ المرآة ـ: بوقوع ضربة المروحة، ولكنه يلقي المسؤولية على دوفال».

- ٢ -

نداء (دوبرمون) الى أهل الجزائر

عشية الغزوة الصليبية الافرنسية

بعث مارشال فرنسا (دوبرمون) وهو يقود حملته لغزو الجزائر، منشوراً عملت اجهزة الاستخبارات والمباحث الافرنسية على الترويج له، ونشره في الاوساط الجزائرية كتمهيد للحملة، وتضمن المنشور ما يلي:

«باسم المبديء المعبود نستعين؛ ويا سادتي القضاة والأشراف وأكابر المشايخ والاختيارية، اقبلوا مني أكمل السلام وأشمل أشواق قلبي بمزيد العز والاكرام. أما بعد!

اعلموا هداكم الله الى الرشد والصواب أن سعادة ملك فرنسا، الملك شارل العاشر، سيدي عز جنابه الأعلى وعز نصره، قد أنعم علي بتوليته اياي- كونت دوبرمون- منصب قائد الحملة، ويا أعز أصدقائنا ومحبينا سكان الجزائر، ومن ينتمي اليكم من شعب المغرب. اعلموا:

أن حاكمكم الداي حسين قد تجرأ على تحقير العلم الافرنسي المستحق كل الاعتبار، وأقدم على اهانته، وبسبب جهله هذا ضرب القنصل الافرنسي- دوفال- بالمروحة. ولم يعرف انه

بعمله هذا انما هو يجلب اليكم الكوارث والضربات، وانه دعى عليكم الحرب من قبلنا، وان عزة ملك فرنسا، القادر، دام ملكه، نزع الله من قلبه رحمته المعهودة ورأفته المعروفة المشهورة تجاه هذا الداي حاكمكم الذي جلب على نفسه الانتقام الهائل - لقلة بصيرته وعماوة قلبه - وقد اقترب منه القدر المحتوم وعن قريب يحل به ما استحقه من العذاب المهين. أما انتم يا شعب المغاربة، شعب الجزائر وجيرانه، اعلموا وتأكدوا يقيناً اني لست قادما لمحاربتكم، وعليكم البقاء في أماكنكم آمنين مطمئنين، وان تتابعوا اعمالكم وتمارسوا صنائعكم وحرفكم براحة، وأعدكم انه ليس بيننا من يريد ضركم لا في مالكم ولا في اعيانكم، وأضمن لكم ان بلادكم وأراضيكم وحقولكم ومتاجركم، وكل ما هو لكم صغيراً كان أو كبيراً، فسيبقى على ما هو عليه، ولا يتعرض لشيء من ذلك جميعه أحد من قومنا، فآمنوا بصدق كلامي. ثم اننا نعدكم وعداً حقيقياً مؤكداً غير متغير أن تبقى جوامعكم ومساجدكم معهودة معمورة على ما هي عليه الآن وأكثر، وأن لا يتعرض لكم أحد في أمور دينكم وعبادتكم. وان حضورنا عندكم ليس هو لأجل محاربتكم. وانما قصدنا محاربة حاكمكم (الباشا الظالم) الذي بدأ وأظهر لنا العداوة والبغضاء. فيا أيها الاحباب سكان المغرب (الجزائر وجيرانها)! وحتى تحصلوا بهلاكه وبزوال سلطانه على كل خير، وحتى يفرج عنكم ما انتم فيه من الغم والشدة وسوء الحال، اسرعوا واغتنموا الفرصة، ولا تعمى أبصاركم عما أشرقه الله عليكم من نور اليسر والخلاص. ولا تغفلوا عما فيه مصلحتكم، بل استيقظوا لكي تتركوا حاكمكم (الباشا) هذا وتتبعوا طريقنا الذي يؤول الى خيركم وصلاحكم وتحققوا أنه تعالى لا يبغي قط ضرراً بخليقته، بل يريد

لكل واحد من مخلوقاته ما يخصه من وافر نعمه التي أسبغها على سكان أرضه.

يا أيها الجزائريون أهل الاسلام! ان كلامنا هذا تعبير عن الحب الكامل لكم، ويشتمل على الصلح والمودة، فان انتم بعثتم مندوبيكم الى مبعوثنا، فنتكلم حينئذ واياهم، والمرجو من الله تعالى أن تؤدي محادثتنا مع بعضنا بعض الى ما فيه منافعكم ومصالحكم. هذا وأما ان كان منكم معاذ الله خلاف ذلك، حتى تختاروا مقاومتنا ومحاربتنا فاعلموا أن كل ما يصيبكم من المكروه والشر انما يكون بسببه من جهتكم، فلا تلوموا إلا أنفسكم، وأيقنوا أنه ضد ارادتنا، فليكن عليكم محققاً ان عساكرنا المنصورة تحيط بكم بأيسر مرام، ودون تعب، وان الله تعالى يسلطها عليكم، فانه تعالى كما يأمر من يجعل له النصر والظفر بالرحمة والتسامح مع الضعفاء المظلومين، فكذلك بحكم بأشد العذاب على المفسدين في الأرض، فلا بد لكم ان تعرضتم لنا بالعداوة والشر من الهلاك عن آخركم.

هذا ما بدا لي أيها السادة أن أكلمكم به، فهو نصيحة مني اليكم، فلا تغفلوا عنه. واعلموا أن صلاحكم هو في قبوله والعمل بما جاء به، وان هلاككم لا يرده عنكم أحد ان انتم اعرضتم عما نصحنكم وأنذرتكم به، واعلموا يقيناً مؤكداً بان كلام ملكنا المنصور المحظوظ من الله تعالى هو كلام لا يمكن تغييره، لأنه مقدر. والمقدر لا بد من تحقيقه،والسلام على من اتبع وسمع وأطاع»[1].

---

(١) تاريخ الجزائر- مجاهد مسعود - الجزء الأول - ١١١- ١١٢.

- ٣ -

معاهدة الاستسلام التي وقعها داي الجزائر

(حسين باشا) يوم ٤ تموز (يوليو) ١٨٣٠ م

توجه (بومزراق) مندوب الداي (حسين باشا) ومعه قنصل انكلترا الى المعسكر الافرنسي مساء ٤ تموز- يوليو- ١٨٣٠، وسألا القائد العام عن شروط الصلح التي يريدها، فحررها لهما، فأخذها (بو مزراق) وعاد بها إلى حسين باشا فجمع رجاله وحاشيته، وتلا عليهم نص هذه الشروط، وحينئذ لم يجد الباشا بداً من توقيع المعاهدة والتسليم بهذه الشروط، التي كانت:

أولاً: يتسلم الجند الافرنسي حصن القصبة، وسائر الحصون الاخرى التابعة للجزائر ومرسى هذه المدينة، في الساعة العاشرة من صبيحة يوم ٥ تموز- يوليو- ١٨٣٠ م.

ثانياً: يتعهد القائد العام للجند الافرنسي، لصاحب السمو داي الجزائر بأن يترك له حريته وكل ثروته الخاصة.

ثالثاً: يستطيع الداي بكل حرية أن يسافر بصحبة عائلته وأمواله الى المكان الذي يختاره، ويكون تحت حماية القائد العام الافرنسي طوال اقامته في الجزائر، وتسهر فرقة من الجند الافرنسي

على حراسته وحراسة عائلته.

رابعاً: يتمتع كافة الجنود الاتراك التابعين لجيش الجزائر بالحقوق المقررة في الفقرات السابقة.

خامساً: تكون اقامة الشعائر المحمدية الدينية حرة، ولا يقع أي مساس بحرية السكان من مختلف الطبقات، ولا بدينهم، ولا بأملاكهم، ولا بتجارتهم وصناعتهم، وتحترم نساؤهم ويتعهد القائد العام بذلك عهد الشرف.

سادساً: يتم تبادل هذه الوثيقة بعد توقيعها قبل الساعة العاشرة من صباح يوم ٥ تموز- يوليو- ١٨٣٠ م. ويتسلم الجنود الافرنسيون فوراً القصبة وقلاع المدينة الاخرى.

الكونت دوبورمون

ختم حسين باشا داي الجزائر

- ٤ -

من تقرير اللجنة الافريقية

(سنة ١٨٣٣)

مضت ثلاث سنوات على احتلال فرنسا للجزائر، لم تعرف فرنسا خلالها الهدوء أو الاستقرار وتشابكت مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية التي دفعت ملك فرنسا، لويس فيليب، الى تشكيل لجنة عرفت باسم (اللجنة الافريقية) وذلك في ٧ تموز ـ يوليو ـ ١٨٣٣، مهمتها دراسة الموقف الشامل للجزائر، وتحديد اسس العمل للمستقبل وتضمن تقرير اللجنة المذكورة ما يلي:

«لقد قضينا تماماً على املاك المؤسسات الدينية، وصادرنا ممتلكات فئة من السكان كنا قد وعدنا باحترام ملكيتها، وبدأنا استعمال سلطتنا بفرض غرامة قدرها (١٠٠) ألف فرنك كقرض إجباري، وذهبنا أحياناً الى حد أن أجبرنا الملاك السابقين على دفع نفقات المؤسسات الخيرية الى الغير... وقتلنا رجالاً يحملون منا ورقة الأمان. وانتهكنا دون خجل بيوت الله والمقابر والدور، وكلها ذات حرمة لدى المسلمين. وذبحنا سكان قرى عن آخرهم لمجرد الشك فيهم، ثم تبينت لنا بعد ذلك براءتهم. وحاكمنا رجالاً يعرفون بالتقوى في البلاد، رجالاً محترمين لأنه كانت لديهم

الشجاعة الكافية لمقابلتنا والتعرض لغضبتنا، لا لشيء سوى السعي لإخوان لهم بائسين. وقد قام قضاة منا بمحاكمتهم، وارتكب رجال متمدينون منا إعدامهم. لقد فقنا في البربرية هؤلاء الذين جئنا لتمدينهم»[1].

(١) تاريخ الجزائر- مسعود - ١/٣٤.

- ٥ -

رسائل وثائقية

(للحاج أحمد باي قسنطينة)

ما ان سقطت العاصمة الجزائر تحت سيطرة قوات الغزو الافرنسي، حتى اخذ الحاج احمد باي قسنطينة على عاتقه قيادة الجهاد في سبيل الله في اقليمه، ومضى مستنفراً الهمم، منظماً للقدرات والامكانات، موجهاً القوى لأعمال القتال، عاملاً على ادارة الحرب، منظماً للعلاقات الجديدة، حريصاً على صراع الاعداء سياسياً وعسكرياً، محافظاً في كل ذلك على نقل الموقف بامانة الى السلطات العليا في دار الخلافة (استانبول) فكانت رسائله وثائق تاريخية تصور الموقف بدقة، يوم اجتاحت قوات الاستعمار الافرنسي دار الاسلام في الجزائر. ويمكن في هذا المجال اقتطاع مقتطفات من تلك الرسائل المتشابهه احياناً في مضمونها، والهادفة ابداً لتحقيق الغاية الواحدة: الحصول على دعم اقليم قسنطينة حتى يتمكن من مجابهة (الحملة الصليبية):

١ـ وفي رسالة احمد باي قسنطينة الى الصدر الاعظم بتاريخ ٢٠ ربيع الأول ١٢٥١ هـ: المصادف ليوم الخميس ١٦ تموز ـ

يوليو- ١٨٣٥ . جاء ما يلي[1]:

«انه تقرر في شريف علمكم ما قد حل بساحة قطرنا من المحن وتراكم الاهوال، واشتعال نار الفتنة عند دخول الافرنسيين للجزائر دار الاسلام، وتشتت حال المسلمين، الذين هربوا بدينهم لا يدرون أين يذهبون، وصاروا في حيوة وشدة، لكون متولي أمرهم أخطأ في تدبيره، ولم يعلم أحداً من عماله وجنوده، واشترط على العدو نجاة نفسه وأهله وماله وترك المسلمين في حيرة عظيمة، فكبسهم العدو على غرة، اذ لم يكن لهم استعداد ولا عدة فاستولى عليهم الأعراب، واستحلوا منهم ما دون أنفسهم. وكنا ممن حضر وقت جباية المال بغير عدة قوية من الرجال، فقمنا باعانة الله، وجمعنا شتاتهم، وحاربنا عدوهم، وما سلكنا بهم الطريق إلا بعد شدائد وأهوال حتى بلغوا محل الأمن من البلاد، وقهرنا أهل الشر والفساد، وبذلنا في سبيل الله وطاعتكم أنفسنا، ومالنا المخلف عن اسلافنا، وكسرنا شوكة أهل الفتن، الموقدين نارها، الخائضين تيارها، وجلبنا الرعية بالبذل الكثير والرفق والاحسان، وأسقطنا عنهم جميع المظالم السالفة والبدع الشاقة الباطلة، واكتفينا منهم بالقانون الشرعي، فطابت نفوسهم، وقرت عيونهم وسكن روعهم، ثم أمرناهم بالاستعداد والوقوف في حراسة الوطن والحذر من مكر أهل الكفر، وما زلنا على تلك الحال، باذلين النفس والمال، حيث أن الدخل الشرعي أقل من خرج ما يلزم صرفه في الجيوش والجند الكثير الوافر، ونحن واقفون به بعون الله وعزه

---

(١) نقلت هذه الرسائل عن (خط همايون)ونشرت بكاملها في نشرة(أبطال المقاومة الجزائرية- الصادرة عن المركز الوطني للدراسات التاريخية باشراف احمد توفيق المدني- الجزائر- ١٩٧٦) كما كانت قد نشرت في مجلة التاريخ رقم ٤- نوفمبر- ١٩٧٦ .

ونصره في عين الكافر. منقادين لطاعة الدولة الخاقانية، وخدمة المملكة العثمانية، نأمر بها البوادي وأهل الحاضر، معلنين بذكر اسمه الشريف في الخطب والدعاء الصالح على المنابر، مستيقظين لاحوال الرعية، والحكم بينهم بالسوية، وتسديد شأن أهل الملة الاسلامية، والوقوف عند حدود الشريعة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية. غير أننا في ضيق وهم وكرب وغم من تعذر الطرقات البرية والمسالك البحرية التي حالت بيننا وبين التوصل والوصول بأخبارنا، وانما أعرض حالنا إلى الحضرة السعيدة، ولو كان بيدنا أقرب المراسي الينا (مثل عنابة) لكان حبلنا متصلاً بمقامكم وودنا متأكد عندكم وخدمتنا مستحسنة بين يديكم ونحن الآن لا يتهيأ لنا ارسال مكتوب إلا بالحيلة والتلطف والوسيلة، فانظروا أعزكم الله في شأن من هو عاكف على الطاعة ملازم للخدمة. فان الأمور مرجعها اليكم، وشرح حالنا لا يخفى عليكم والسلام ختام».

٢ـ ووجه أحمد باي قسنطينة رسالة الى الصدر الاعظم نامق **باشا في ٢ ربيع الأول ١٢٥٣هـ ـ الموافق ليوم الثلاثاء ٦ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٣٧ م. وهي رسالة أقرب الى الانذار، وفيها ما يلي** بعد الديباجة:

«لا يخفاكم ما حل بقطرنا ونزل بساحنا من تراكم الاهوال منذ ذهبت الجزائر الى الآن، وقد كابدت جميعها، وقواني الله عليها. وتحملت المشاق العظام والشدائد التي لا يطيقها أحد من الأنام، كل ذلك لرفع منار الدين واظهار طاعة أمير المؤمنين، وتماديت على ذلك منتظراً الفرج وازاحة الحرج على يدكم. ولما قدم سفير الدولة

السيد كامل بايك، عرفته بأمورنا، وكتبت معه عرض الحال لسيدنا ادامه الله للأنام، وكذلك مكاتبي ورسلي لم ينقطعا عن السيد طاهر باشا بتفصيل حالنا، وانهاء جميع ما عندنا، والى الآن لم يصلنا جواب، وقد طال علينا الحال، وتواترت الأهوال، خصوصاً حيث كان عدو الدين في طلبنا، فلا راحة لنا منه إلا بسطوتكم، . . . وواجب عليكم ان تشيروا علينا، وتجبروا صدعنا. . . وان لم ترفعوا بطرفكم الاعز هذا الجانب كان عرضة للتلف والمصائب ويسألكم الله عنا. . . وعليكم إبلاغ خبرنا مع طوائف الكفار، ومعاشر البغاة الفجار».

٣ ـ ووصف أحمد باي قسنطينة سقوط المدينة في قبضة الافرنسيين، والمقاومة الضارية للمسلمين في رسالته التي وجهها إلى (حسين باشا) وإلى طرابلس الغرب في ١٥ رجب ١٢٥٣ هـ الموافق ليوم الأحد ١٥ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٨٣٧ م والتي جاء فيها بعد الديباجة:

«لا يخفاكم أمرنا مع الافرنج وعدم متابعته له في مرامه، من أن أكون تحت طاعته ومن ايالته ورعيته، فلما يئس منا أتانا في عام اثنين وخمسين. ومائتين وألف ـ قاصداً هلاك الاســلام وخراب البلد بين الانام بجيوش كثيرة، فحمانا الله تعالى منه، ورجع بالويل والبؤس بعد أن قطعت منه آلاف الرؤوس، فزاد غضباً على غضبه، وشكا لجنده وحزبه، واتانا في العام التالي بجيش وعدة أكثر من الأولى، فتهيأنا للقتال، امتثالاً للكبير المتعال، فحاصر البلد ثمانية أيام بلياليها، وتكلم مدفعه حواليها، فألفى رجالها كالاسود، راغمين العدو الحسود، جزاهم الله عن دينهم خيراً، لقد اذاقوه السم الأمر، فالتفت بالرمي على السور، إلى أن لم يبق منه إلا القليل، وأهل المدينة

بين جريح وقتيل، فهجم عليهم بالدخول لانني من خلفه بأهل الايمان أقطعناه المأمول، فلما وجد أهل الايمان وهنوا من الضرب والطعن ما ونوا، دخل، وكان أمر الله قدراً مقدوراً. . . وقد قتل بعد الدخول من أهل الايمان كثيراً. . . وهاأنا الآن بالبادية في غاية السلاسة. . . وقد اجتمع علينا خلق كثير لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، قاصدين إعزاز دينهم، وقد كاتبنا المولى الأعظم السيد قبطان باشا ليعملوا لنا تأويلاً ان كان غرضهم نصر الدين المحمدي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، وإعزاز هذا الاقليم بين الانام، وإلا يأمرونا بالقدوم اليهم، ويعينوالنا طريقاً مأموناً، لأموت بين أيديكم عزيزاً، ولا أرضى بالمذلة، لاننا ان مكثنا بالبادية، وطال الأمر علينا، يحصل لهم الملل، والوطن دخلته رائحة الكفر، وأهل البوادي ضعفاء القلوب، لا سيما وأن (ابن محي الدين- الامير عبد القادر) منهم وهو الآن في اعانة العدو. فلا بد أيها السيد الجليل ان تعرفوا السيد قبطان باشا، وان تعلموا أمير المؤمنين بهذه البلية العظيمة والثلمة الواقعة في ايالته. عساه يبلغ الاسلام في العدو المأمول، فكيف والله تعالى سائل اميرنا وسلطاننا عنا ويتركنا مهملين».

٤- وفي رسالة مماثلة كتبها أحمد باي قسنطينة للصدر الاعظم أحمد قبطان باشا بتاريخ ١٥ رجب ١٢٥٣ هـ (في ذات اليوم الذي ارسلت فيه الرسالة السابقة) جاء ما يلي:

«أما بعد. . . . اصغوا الى ما حل بنا واهمال ديننا، فكيف تتركونا للأعادي، وأنتم موجودون، ويشتت شملنا، وأنتم المخاطبون كلا، والله انكم مسؤولون عن تسليمنا للكافر ومقته، وكل راع مسؤول عن رعيته، وذاك انه لا يخفاكم شأننا، ومعاداتنا للافرنج منذ

أخذ الجزائر ونحن معه في غاية الحرج، ويخاطبنا على الدخول تحت طاعته، وان اكون من ايالته ورعيته. وأنا لا أزيد إلا فراراً، حرصا على الدين القويم، وامتثالاً للملك العليم، فكيف أنبّه في مراده الضنين وأكون خائناً للمسلمين بعد قوله تعالى: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً)».

المراجع الرئيسية للبحث

(١) تاريخ الجزائر الحديث - بداية الاحتلال- الدكتور أبو القاسم سعد الله- معهد البحوث والدراسات العربية - جامعة الدول العربية- القاهرة- ١٩٧٠

(٢) تاريخ الجزائر- الاستاذ مجاهد مسعود - الجزء الأول- الجزائر- ١٩٧١.

(٣) ثورة الجزائر- جو ان جليبي- ترجمة عبد الرحمن صدقي أبوطالب - الدار المصرية للتأليف والترجمة- القاهرة ١٩٦٦.

(4) POLITIQUES COLONIALES AU MAGHREB- (CHARLES- ROBERT AGERON) PRESSES UNIVERSITAIRES DE FRANCE 1973. PARIS.

(5) L'AFRIQUE DU NORD. (JEAN DESPOIS) PRESSES UNIVERSITAIRES DE FRANCE 1964 PARIS.

(6) LA RESISTANCE ARMEE ALGERIENNE (1830» 1920) ETUDE DOCUMENTAIRE «MINISTERE DE LA DEFENSE NATIONALE «ALGER 1974.

الفهرس